مظاهر الأحزان على جوارح الإنسان في ضَوْءِ القرآن الكريم « بلاغة وإعجازاً »

✍ الدكتور

أماني محمد هاشم عبد المجيد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنات الزقازيق –

العدد العشرون

للعام ١٤٣٧هـ / ٢٠١٦م

الجزء الثالث

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٦م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة:

الحمد لله الذي علَّم القرآن، وجعله في أعلا درجات البيان، وحفظه من الزيادة والنقصان، والصلاة والسلام على حبيب الأنام ، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الحساب ، أما بعد .

فمن دواعي السرور والشرف أن نسبح في رحاب البلاغة القرآنية لنبين

مظاهر الأحزان على جوارح الإنسان

فعندما خلق الله تعالى الإنسان أودع فيه الأحاسيس والمشاعر، والغرائز والانفعالات، وجعل تلك الانفعالات هي همزة الوصل والتفاعل بينه وبينَ الآخرين؛ ليكون بها شاهدًا على عجائب قدرته وأسرار خلقته .

وللانفعالات النفسية في القرآن الكريم صور عديدة، ومن يعكفُ على دراستها يجدْ فيها وصفًا دقيقًا وتشخيصًا حيًا لكثيرٍ من الانفعالات التي يشعر بها الإنسان في حياته، فمنها انفعالات تدل على الراحة والاطمئنان مثل: الحب والمودة وغيرها، وانفعالات تدل على الألم مثل: الحزن والخوفُ والغضب والبغض وغيرها، كل ذلك يحتاج إلى مؤلفات عديدة لا نصل إلى نهايتها؛ لأنه كتاب الله المُعْجِز الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾؛ [١] لأنه ﴿ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .[٢]

لذا يعتبر الأثر النفسي الذي يصدره القرآن الكريم في نفسِ المتلقي مِنْ مقومات إعجازه ، وبحثنا هذا لمحة بسيطة عن التواصل في القرآن الكريم بلغة

---

(١) سورة فصلت ، آية ٤٢.
(٢) سورة النمل، آية ٦.

غير منطوقة لوصف مظاهر انفعال الحزن من خلال التعبير بجوارح الإنسان كالوجه والعين والفؤاد والقلب في حالة الحزن الشديد.

ولغة الجسد وتعبيرات الوجه والعين والفؤاد والقلب من الأساليب التي استخدمها القرآن الكريم لوصف انفعال مَنْ بُشِّرَ بالأُنثى، في قوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾،(١) ووصف الأب الذي فقد ابنه حينما قال: ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾،(٢) ووصف فؤادُ أُمٍّ تتلهف على وليدها الرضيع في قوله : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾.(٣)

ومن خلال ذلك نُظهر– بمشيئة الله تعالى– لماذا آثر النظم القرآني التعبير بالوجه ولم يحدد جارحة بعينها عندما وصف مظاهر الزوْج الذي بُشِّر بالأنثى؟ ولماذا آثر جارحة العين عندما تحدَّث عن مظاهر حُزْن الأب الذي فقد ابنه؟ ولماذا عبَّر بالفؤاد والقلب عندما تحدَّث عن مظاهر حزن أُمٍ فقدت رضيعها؟

وذلك؛ لأن لغة القرآن الكريم شاملةً لوسائلِ التبليغِ والاتصالِ، ولغة الجسد قادرة على مخاطبة العقل، وتحريك العواطف وتوصيل الرسالة الربانية إلى المخاطب بأسلوب سهل.

ومن ثَمَّ فهو موضوعٌ قيّمٌ بأن يُدرسَ دراسةً بلاغيةً وافيةً من أبعادها كافّةً، حتى نستجلي أسرار الأسلوب القرآني في صوره البلاغية المعجزة ونحن نغوص في أغوار النفس من خلال نظمه المعجز المبدع ؛ لاشتماله على أسلوب يجمع بين روعة التركيب، وجمال التعبير، ودقة الانتقاء، وقوة التأثير، وما نقدمه اليوم ما هو إلا بلاغة معجزة لنُظهر مدى التزاوج النفسي والاجتماعي لدى الإنسان في كتاب الله المقروء؛ لبروز ذلك الجانب فيها.

(١) سورة النحل، آية ٥٨.
(٢) سورة يوسف ، آية ٨٤.
(٣) سورة القصص، آية ١٠.

ومن هنا تعلَّق فؤادي بهذا البحث؛ لربط البلاغة القرآنية بالنفس والمجتمع، كي نعيش في رحابِ أنماطِ السلوكيات والأعراف الاجتماعية التي أمر رب الأنام باقتفائها[١] وسَلْك مناهجها؛ لِمَا لَها من أهمية في حياتنا العصرية، وفي تربية أبنائنا؛ حتى يمكننا من خلاله معالجةُ الفرد والمجتمع.

وقد جاء البحث في مقدمةٍ وتمهيدٍ وفصلينِ وخاتمةٍ.

- **المقدمة** : احتوت على أهمية الموضوع، والأسباب التي دعت إلى دراسته، ومنهج البحث والخُطة التي صار عليها.
- **التمهيد**: تأثير الأحزان على جوارح الإنسان في القرآن الكريم.
- **الفصل الأول** : مظاهر انفعال الحزن عند "مَنْ بُشِّرَ بِالأُنثى".

- **المبحث الأول** : الأسباب البلاغية الإعجازية في المتشابهات القرآنية . " في آيتي النحل والزخرف".
- **المبحث الثاني**: نظرات في الكلمة القرآنية وأحوالها"في آيتي النحل والزخرف
- **المبحث الثالث**: بلاغة وصف انفعال وجه "مَنْ بُشِّرَ بالأُنثى".

- **الفصل الثاني** : مظاهر حزن الآباء على الأبناء بين الإعجاز النفسي والبلاغي.

- **المبحث الأول** : مظاهر حزن يعقوب على ابنه يوسف-عليهما السلام-
  - المحور الأول: جمالية الكلمة القرآنية ودلالتها في آية يوسف .
  - المحور الثاني: نظرات في أحوال الجملة القرآنية في آية يوسف.
- **المبحث الثاني**: مظاهر حزن أم موسى -رضي الله عنها-.
  - المحور الأول: استلزام انفعال القلب والفؤاد في حزن أم موسى-رضي الله عنها-.
  - المحور الثاني: الجملة القرآنية وجمال صياغتها في وصف حزن الأبوين.

---

(١) أي : تتبع آثارها والتعلم منها.

- **الخاتمة** : أجملت فيها النتائج التي توصل إليها البحث.
- **ثبت بأهم مصادر ومراجع البحث** ، وفهرس الموضوعات.

وسرت في هذا البحث على ثلاثة مناهج :

١- المنهج الاستقرائي التام: حيث قمت بقراءة الآيات الشريفة، وفهمها، واستخراج الإعجاز البلاغي والنفسي لمظاهر الحزْن الانفعالي .

٢- المنهج التذوقي: الذي بمقتضاه استطعت أن أتذوق الأساليب البلاغية وأُبيِّن سرّ بلاغتها وإعجازها.

٣- المنهج العلمي: حيث اطّلعت على النظريات والحقائق العلمية في مجال الطب وعلم النفس والاجتماع- قدر المستطاع-، وبيان مدى موافقتها من حيث الإعجاز القرآني.

وقد جاءت هذه الدراسة خدمةً لكتابِ اللهِ تعالى، وأسأل اللهَ-ﷻ- أن ينفعَ بهذا الجهدِ المتواضع، وأن يُجزيَنا عنه خيرَ الجزاء، وأن يعفوَ عنَّا، ولا يؤاخذنا بما جرى به القلم في غفلةٍ منَّا بلفظٍ لا يليقُ بكتابِ ربِّ الأنامِ، ، فما أحلى فصاحته وأنضر بلاغته!! ولله دُرّ التنزيل فهو﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.(١)

(١) سورة الأنفال، آية ٤٠.

تمهيد

"تأثير الأحزان على جوارح الإنسان"

- الإعجاز في القرآن الكريم:
- مظاهر انفعال الحزن في القرآن الكريم.
- استلزام انفعال القلب والفؤاد في إعمال الجوارح.

تمهيد:

تأثير الأحزان على جوارح الإنسان في القرآن الكريم.

- **الإعجاز في القرآن الكريم:**

للقرآن الكريم أثرٌ بعيدٌ في القلوبِ والنفوسِ وهذا وجهٌ من وجوه إعجازه؛ لأنه يخاطِب عقلَ الإنسانِ ووجدانَه، ويهديه إلى الطريق الأقوم؛ لنمو شخصيته وتحقيق ذاته، ومن ثم انطلقت جهودُ العلماءِ في إبراز وجوه إعجاز القرآن وضوابطه، فمن العصر الأول عصر الصحابة وهم يتأملون في إعجازه وعظمته ويُسطّرون العبارات الدالة على ذلك، من خلال تفسيرهم لآياته دون إفرادِ كتابٍ في إعجاز القرآن .

وفي القرن الثاني الهجري ظهرت بعض المؤلفات التي تتحدث عن معاني القرآن وتضم في داخلها شيئًا من دلائل إعجازه، دون إطلاق كلمة إعجاز، فظهر كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة(ت٢٢٣هـ) و(معاني القرآن) للفراء (ت٢٠٧هـ)، كما ألَّف ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) كتابه(في تأويل مشكل القرآن).

وأخذت المؤلفات تتتابع دونَ إطلاق كلمةِ إعجاز حتى القرن الثالث، حيث أَلَّف محمد بن يزيد الواسطي (ت ٣٠٦هـ) أوَّلَ كتابٍ بعنوانِ (إعجاز القرآن)، وبعد ذلك أخذت كُتُبُ إعجازِ القرآن تتتابعُ كاشفةً عن وجوه إعجاز هذا الكتاب الكريم.

وكان العلماء في قضية إثبات وجه إعجازه بين مُضَيِّقٍ ومُوسِّعٍ حَسْبَ النظرة التي انطلق منها كلُ منهما وقواعد استدلاله، فبعضُهم حصر وجه الإعجاز باللفظ، وبعضهم ربط بين اللفظ والمعنى، وبعضهم جعل وجهَ الإعجاز في الصِّرفة، وبعضهم توسع ليجعل الإعجاز في البيان ليشمل اللفظ والمعنى والنَّظم.

ولم تقف جهودُ العلماء عند هذا الحَدِّ بل تعدَّت ذلك؛ لتبرز وجوهًا من الإعجاز ظهرت في القرون المعاصرة، مثل الإعجاز العلمي والإعجاز التاريخي والإعجاز العددي...

وقد جاء هذا البحثُ محاولةً لإبرازِ الإعجازِ البلاغي وبيان مدى تأثيره على السلوك الانفعالي في ضَوْء القرآنَ الكريم؛ وذلك لأن القيمة الجمالية التي يثيرها النَّظمُ القرآنيُ في النفسِ الإنسانيةِ هي الفارق الذي يُفْرَقُ بينه وبين ومستويات الكلام البشري الأخرى.

وذلك لأن القرآن الكريم في حقيقته رسالة سماوية لها طبيعتها الخاصة، تلك الطبيعة قادرة على أن تغرس في كل عقلٍ نيِّرٍ وقلبٍ سليمٍ محبةَ هذا القرآن، والتمسك بأهدابه.

والعلوم البشرية شيءٌ وفهم إعجاز القرآن الكريم شيءٌ آخر، فلا يوجد علم يُثْبت الحقائق القرآنية، وإنما يكشف بعض أسراره، ومن ثَمَّ كان من الطبيعي في كتابٍ غايتهُ تربيةُ النَّفسِ الإنسانية أن يتوافر فيه كثيرٌ من الآيات التي تصفُ أحوالَ النَّفسِ وتَعْمَد إلى كشف خفاياها في أسلوبٍ بلاغيٍ معجزٍ يحمل صورًا تنبضُ بالحركة وتموج بالمشاعر.

الانفعال في اللغة: مأخوذ من الفعل انفعل ومنفعل بمعنى تأثّر به انبساطًا وانقباضًا،[1] والمنفعلُ يقال: (لما لا يقصد الفاعل إلى إيجاده وإن تولَّد منه، كحمرة اللَّوْن من خجلٍ، وقيل: لكلِّ فِعْلٍ انفِعَالٌ). [1]

الانفعال في الاصطلاح: من المعلوم أن الذي قعّد قواعد الانفعالات، ووضع نظرياتها هم علماء النفس والاجتماع، وككل المفاهيم لا يوجد تعريف للانفعالات

(١) المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ص ٤٧٦، ط/ ٢٠٠٤م .
(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ص٣٨٢: ٣٨٣، دار المعرفة بيروت لبنان.

النفسية مُتَّفق عليه بين علماء النفس؛ [٢] (لاختلاف خصائص ومكونات ووظائف الانفعالات، بالإضافة إلى الفروق في الخلفياتِ النظريةِ لدى علماء النفس).

ويمكن الإشارة إلى تعريفها بأنها: "حالات وجدانية عنيفة مركبة تكون مصحوبة باضطرابات عضوية بارزة تشمل جميع أجهزة الجسم العضلِي والدموِي والتنفُّسِي والغُددِي"،[٣] ومن هذا التعريف يتضح أن للانفعال جوانب ثلاثة وهي :

- جانب شعوري ذاتي: وهو الذي يُدلي به الشخصُ المنفعلُ عن نفسه.
- وجانب خارجي ظاهر: يشمل التعبيرات والحركات والأوضاع والألفاظ والإيماءات التي تظهر عند الشخص المنفعل، كالابتسام، والصراخ، والتنهد، والعُبوس، والبكاء، والأَنين، وكلها ترتبط بالجوارح الظاهرة.
- وجانب فسيولوجي داخلي: [٤] يشمل التغييرات الداخلية في دقات القلب والدورة الدموية والتنفس، وهي ترتبط بالأحاسيس والمشاعر الباطنة المعبَّر عنها في بحثنا بمظاهر الانفعال الباطنة "القلب والفؤاد".

مظاهر انفعال الحزن في القرآن الكريم:

من خلال النظر في القرآن الكريم، هدينا إلى أن كلمة "الانفعال" لم ترد فيه، وإنما دل عليها معناها اللغوي الذي يدور حول الحالة الوجدانية التي يثيرها مؤثرٌ ما، ومن ثم فالانفعالات النفسية التي يشعر بها الإنسان في حياته نوعان:

- انفعالات تدل على الراحة والاطمئنان مثل: الحب والمودة وغيرها.
- انفعالات تدل على الألم مثل: الحزنِ والخوفِ والغضبِ والخجلِ والسُّخريةِ والبغْضِ وغيرها.

---

(٢) سيكولوجية الدافعية والانفعالات، محمد محمود بني يونس،ص٢٢٧، دار المسيرة ، ط/١، ٢٠٠٧م.
(٣) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ، د/ عبد العزيز القوصي، ص ١٦٦، ط/ ٨، مكتبة النهضة العصرية ، بدون تاريخ.
(٤) سيكولوجية الدافعية والانفعالات محمد محمود بني يونس، ص ٢٢٨.

"والحزن" من "أقوى أسباب مَرَضِ النفس؛ لأنه موضوع بإزاء كل مِحْنَةٍ وبَلِيّة"(١) إذ هو مظهر من مظاهر الألم يؤثر في الجوارح الظاهرة والباطنة للإنسان وينتج عنه سلوك انفعالي، وهذا السلوك غالبًا ما يلازم الإنسان الذي تحف به المكاره.

ولكن لنا أن نتساءل هل للقلب انفعال كغيره من الجوارح؟ للإجابة عن هذا السؤال لابد أن نتحدث عن:

استلزام انفعال القلب والفؤاد في إعمال الجوارح.

من خلال تحليلنا لمظاهر الأحزان على جوارح الإنسان في القرآن الكريم، هُدِينَا إلى أن مظاهر انفعال الحزن نوعان:

- **نَوْعٌ يتعلقُ بالجوارحِ الظاهرة مثل** :

- **سواد الوجه** : الذي يظهر على الزوج الجاحد عندما يُبَشَّر بالأُنثى.

- **بياض العين** : وهو مظهر حزن يعقوب على فقد ابنه نبي الله يوسف – عليهما السلام–.

- **نَوْعٌ يتعلَّقُ بالباطنِ مثل** :

– الفؤاد الفارغ: وهو مظهر حزن أم موسى–رضي الله عنها–على رضيعها نبي الله موسى–عليه السلام– والذي لولا أن ربط الله على قلبها لظهرت انفعالات ذلك الفؤاد على جميع جوارحها الظاهرة .

والنَّوْعُ الثانِي يُعتبر أقوى مظاهرِ انفعالِ الحزنِ في القرآن الكريم، حيثُ جعل الله–عز وجل– به تلازمًا بين الباطنِ من أعمال القلوب، وبين الظاهرِ من أعمال الجوارح، إذ للقلوب أعمالًا، كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا

(١) الإعجاز والإيجاز ، أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق : محمد إبراهيم سليم، ص ١٥، مكتبة القرآن ١٩٩٩م.

مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾،[١] ولكنها أعمال باطنة، ومثلها مثل أعمال الجوارح في الإنسان كقوله-ﷻ-: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ﴾[٢] ومن ثم جعل-ﷻ- للأعمال الظاهرة تأثيرًا في القلوب.

كما أن تبعية إعمال الجوارح لأعمال القلب واقترانها بها وتلازمها معها، أشار إليها المصطفى -ﷺ- حينما قال:﴿ أَلا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ، فَمَا أَنْكَرَ قَلْبُكَ فَدَعْهُ﴾.[١]

ولكن ما هي أهمية أعمال القلب؟ "أركان الإيمان كلها من أعمالِ القلوب، وأركان الإسلام من أعمال الجوارح"،[٢] إذن فأعمال القلوب هي التي توجه الجوارح وتحركها نحو العمل الصالح، أو أعمال الشر، ويبين ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.[٣]

لذا جمع النَّظْم القرآني بين الجوارح الظاهرة في قوله :﴿السَّمْع والبَصَر﴾ وبين﴿الفُؤَاد﴾ وهو من الأشياء الباطنة، بحرف العطف "الواو" ؛ لدلالتها على مطلق الجمع فقال: ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ ثم بعد ذلك قال: ﴿كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾؛ لأن (تأثيرَ الظاهر في الباطنِ والباطن في الظاهر كالشجرةِ التي تُروى من جذورها، فإذا رُوِيَتْ أيْنَعَت وأزْهرَت، وإذا جاءها الطلُّ والنَّدى أَوْرقَت أوراقها أيضًا).[٤]

---

(١) سورة الحج، آية ٣٢.
(٢) سورة الأعراف ، آية ١٩٥.
(١) سورة المجادلة، آية ٢٢.
(٢) السيف المسلول على من سب الرسول-ﷺ-، علي بن عبد الكافي السبكي تقي الدين، تحقيق: إياد أحمد الغوج ص ٤٠٣، ط/٢٠٠٠م، دار الفتح الأردن.
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٣٦.
(٤) الإيمان، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني تقي الدين، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ص ، المكتب الإسلام ط/٢، ١٩٩٦م.

ومن ثم فإن استلزام الباطن من أعمال القلوب للظاهرِ من أعمال الجوارحِ يُظهر لنا الجانب الإيجابي بأن وجودَ الإيمان في القلب، لقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾.(٥)

ومن خلال ما سبق سوف نظهر –بمشيئة الله تعالى–الإعجاز البلاغيِ والنفسي الذي ورد في الآيات الكريمة التي تناولت مظاهر الأحزان على جوارح الإنسان .

ولا شك أن البلاغة تفيد قوة الإفهام على ما يريده الإنسان بإذعان النفسِ له إذا جاء الكلام مطابقًا لمقتضى الحال؛ ولكنه لا يكفي في توصيف الكلام بالبلاغة ما لم يضم إليه قيد آخر، وهو كون المعنى ساميًا ورفيعًا، وقابلاً للذكر والإفادة، والبحث في إعجاز القرآن الكريم يقتضي التركيز على أمرين:

١- مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

٢- سمو المعاني وعلو المضامين في نَظْمٍ مُعجزٍ.

ومن ثم نجد النظم القرآني يصف لنا مظاهر انفعال الحزن، وكأنه يتعامل مع وصف تلك المظاهر كالطبيب النفسي، حيثُ يشرحُ ما يواجه هذه الفئة من مظاهر الانفعال والتي يصاحبها سرعة في دقات القلب وشدتها، كما يصاحبها ازدياد في كميات الدم التي يوجهها القلب إلى أجزاء الجسم، وما يصحبها من تغيرات فسيولوجية داخلية وبدنية خارجية.

وهنا يجمع النَّظْم القرآني بين الجانبِ الشعوري والحركةِ الداخليةِ والخارجية في مشهدٍ بلاغيٍ مُعجزٍ، لو اجتمعت علوم الكون لعجزت عن بيان تلك الحالة بتلك الروعة القرآنية، حيث جمع بين العاطفة والانفعال، ليبين الأثر البالغ في توجيه سلوك الفرد وتفكيره، وفي تكوين المعتقدات، ثم أوضح آثاره الضارة بالجسم والنفس والعقل.

ونحمد الله أن هُدينا لآيات الذكر الحكيم التي تعبِّر عن مواقف نفسية مختلفة وفي حالاتٍ متعددةٍ ، ولأشخاص ذوي مرجعيَّات عقائدية مختلفة.

ولنبدأ أولا: ببيان مظاهر حزن مَنْ بُشِّر بالأنثى ، والله المستعان .

---

(٥) سورة المجادلة ، آية ٢٢.

الفصل الأول :

مظاهر انفعال الحزن عند "مَنْ بُشِّر بالأُنثى".

المبحث الأول : الأسباب البلاغية الإعجازية في المتشابهات القرآنية. " في آيتي النحل والزخرف".

المبحث الثاني : نظرات في الكلمة القرآنية وأحوالها. "في آيتي النحل والزخرف".

المبحث الثالث : بلاغة وصف انفعال وجه "مَنْ بُشِّر بالأُنثْى".

المبحث الأول

الأسباب البلاغية الإعجازية في المتشابهات القرآنيـة.

" في آيتـي النحل والزخرف "

هُدينا – بفضل الله تعالى– إلى الأسباب البلاغية والنفسية في تصوير مشهد حزن "مَنْ بُشِّرَ بالأنثى" من خلال المتشابه القرآني في آيتي "النحل" و"الزخرف"؛ لبيان مظاهر انفعال الحزن ومدى تأثيره على الجوارح.

ومظاهر حزن من بُشِّر بالأنثى عقيدة لم تكن في الجاهلية فحسب، بل نراها في الموروث الاجتماعي في مجتمعنا العربي وفي معظم دول العالم، نعم حالة نراها موجودة في الواقع، حيث تُظْهِر تلك العقيدة مظاهر الحزن والكآبة والغضب، ولنتساءل لماذا يفرح الرجل إذا رزقه الله مولودًا ذكرًا ؟ ولماذا يحزن إذا رزقه الله أنثى؟

لذا سوف نتناول الأسباب البلاغية والنفسية؛ للعرب الجهلاء الذين عاشوا قبل الإسلام، وهم يحزنون أشد الحزن على ولادة البنات، من خلال آيتي النحل والزخرف ، قال–ﷻ– في سورة (النحل آية١٥٨) :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

وقال–ﷻ– في سورة (الزخرف آية ١٧) :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾.

كلٌ من الآيتين الكريمتين تَعرِضُ لنا مشهَد الحزْن والأسى لمن بُشِّر بالأنثى؛ لإبراز الصراع النفسي الذي يختلجُ هذه الفئةَ، وجاء بهذا الوصف؛ ليجعله وسيلةً لكشف خبايا قلب الشخصية والتحدث عنها صراحة.

ومع التشابه اللفظي الواضح بين الآيتين إلا أنه لا تكرار فيهما، إذ كل آيةٍ منهما تُعبِّر عن مرحلةٍ خاصةٍ، كلٌ مرحلةٍ تصورُ مظهرًا من مظاهر الآثار النفسية

التي يتبعها موقفٌ نفسيٌ ناشئٌ عن أصل عقائدي عزَّزه عُرفٌ جاهلي، من خلال الموروث الاجتماعي، وهذا كلُّه ليصوِّرَ لنا الظاهرةَ النفسية، أي الحالة الشعورية التي يحسُّ بها الفردُ في جميع المجتمعات المختلفة، بحيث إذا كانت عادةٌ بها موروثٌ مجتمعيٌ تكون قويَّةً ومصحوبةً باضطراباتٍ نفسيةٍ حادةٍ ، مما يخلُق عنده حالةً شديدةً من التوترِ والتهيُّجِ .

ولما كان لكلِّ مقامٍ مقالٍ، ولكلِّ حالٍ ما يناسبه، تناول النَّظْمُ القرآني وصفَ الانفعالِ الناتجِ عن اغتمام هذه الفئة وامتلائها غَيْظًا وهَمًّا؛ ليبين أن العامل النفسي وأثره هو المحرك لهاتين الآيتين.

ومن ثم اختلف وصفهما لاختلاف مدلولهما؛ لأن مظاهر تلك الانفعالات تساعدنا على فهم الآخرين، والتعامل معهم، وتساعد الآخرين على أن يدركوا ويفهموا ما نرمي إليه وما نريد التعبير عنه، ومن ثم نوجز مواطن الاختلاف بين نظم الآيتين فيما يلي:

- **الاختلاف في الوصف**

احتوت الآيتان الكريمتان على وصف مرحلتين مختلفتين عند من بُشِّر بالأنثى، هُدينا إليهما من خلال سياق كل آيةٍ وقرائنَ أحوالِها.

– المرحلة الأولى : مرحلة الوصف الفعلي .

يقول تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾. (١)

تُصوِّرُ آياتُ سورةِ "النحل" مرحلة (الوصف الفعلي) لوأدِ الأنثى من خلالِ وصف مظاهر حُزن هؤلاءِ الكفّارِ بصفةٍ عامةٍ، وهذا الزوجُ بصفةٍ خاصةٍ حينما يُبَشَّرُ أحدُهم بجنس المولود الذي وهبه الله تعالى له؛ وذلك لبيان الأثر النفسي

(١) سورة النحل ،الآيات ٥٧ : ٥٩.

الذي ينتابه، فهذا المشرك بعد أن يبشِّر بولادة الأنثى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ولم يكتفِ بذلك بل يدورُ في ذهنه شيئان :

- إما أن يمسكها على مذلةٍ وعارٍ وهوانٍ.
- وإما يدسُّها ويخفيها في التراب حيَّةً حتى تموت.

وقد أشار إلى هذا التعامل سيد الخلق -ﷺ- حينما قال:{مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا،-قَالَ: يَعْنِي الذُّكُورَ- أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ}،(١) فمثل هذه المعتقدات من مخلَّفات الجاهلية.

ومن ثَمَّ تتحدث الآياتُ الكريمةُ عن "الوصف الفعلي" والتنفيذي نتيجةً لما بُشِّروا به، المتمثل في "وأدهم للبنات"، حيثُ يصفُ تنفيذُهم لأعظمِ درجاتِ الظلم وأشنعه، إذ لم تقدم الموؤدةُ أي جريمةٍ ولا شبهة تتعلقُ بقتلها؛ لبيان كيفية تعاملهم مع هذه الأنثى بأسلوبٍ بلاغيٍ معجز.

ويشفع لذلك الوصف إيثار النظم القرآني للفظ:﴿ يَدُسُّهُ﴾، حينما قال: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾، فآية النحل إذن تفيد ذلك الوصف التنفيذي، حيث أراد لازم معنى لفظ ﴿يَدُسُّهُ﴾ الحقيقي وهو إخفاء الشيء في غيره، وإخفاء الشيء يستلزم عدم الرضا وشدة الحزن والإعراض عن هذا الأمر؛ لذا فهو يخفيه عن أعين الناظرين.

ولكن الإخفاء هنا استلزم معنى المداراةِ ، وتلك الأرواحُ لا يمكنُ مداراتُها إلا في التراب لتجنب ظهور رائحتها بعد تحليلها، وقد جرت عادةُ العربِ في الجاهلية بوأد البنات حيَّة، وذلك لانحطاط قدرها في مجتمعهم، ودناءة منزلتها لديهم، بينما يقبلون عليها ويتوجهون إليها بالملاطفة عند الرضى.

---

(١) الراوي: عبدالله بن عباس، انظر سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود، تحقيق محمد عوامة، مجلد (٥)، حديث رقم٥١٤٦، دار القبلة – مؤسسة الريان- المكتبة المكية، ط/١٩٩٨م.

وهنا أراد المولى -ﷻ- أن يفضح فعلَتهم ويُحرِّمُها بأسلوبٍ كنائيٍ حتى لا تقشعرُّ منه الأبدان؛ لأن هذه الفعلةَ تخالفُ الطبيعةَ البشريةَ، ومن ثم عبَّر بلفظ : ﴿يَدُسُّهُ﴾ كناية عن صفةِ الوأدِ، أي: دفن الأنثى حية في التراب، حتى لا تنبو الطباع من ذكر الدفن في التراب، ولا تنفر منه الأسماع.

إذ الوأد في واقِعِهِ أمرٌ رهيب، فالفاعل يقوم بسحق كلِّ ما بين جوانحه من عطف ورحمة؛ ليتمكن من قتل إنسان بريء، والأقبح من ذلك افتخاره بعمله الشنيع هذا، فأين الفخر مِنْ قتل إنسانٍ ضعيفٍ لا يقوى حتى للدفاعِ عن نفسه؟ بل كيف يدفن الإنسان فلْذةَ كبدِهِ وهي حية؟

فوظيفة التعبير في القرآن الكريم لا تنتهي عند الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات، بل يضاف إلى هذه الدلالات مؤثراتٌ أخرى كالظِّلالِ الذي يشغله اللفظ وتشعه العبارات الزائدة على المعنى الذهني ، ثم طريقة تناول الموضوع ليكتمل بها أداء المعنى في النص القرآني.(١)

ومن ثَمَّ جاءت الكنايةُ مشيرةً إلى هذه المعاني كلِّها دالةً عليها، وهنا تكْمُنُ بلاغتُها وأثرُها في السياق؛ لأن فيها دلالةً على بشاعةِ الصورةِ وآلامها، كما أن فيها دلالة أيضًا على عِظم الأمر الذي أقدم عليه هؤلاءِ الذين يدفنون الإناث حية، كلُّ هذه الدلالات تبين أثر الكناية النفسي الذي جعلها تحقق غرض الوصف الفعلي من خلال توظيفها في آية النحل .

لذا ذكر لفظ "الأنثى" صراحةً فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى﴾ ، والنظم القرآني له قدرةٌ عجيبةٌ على اختيار الكلمة المفردة المعبِّرة والمصوِّرة للمعنى

(١) انظر النقد الأدبي، وأصوله ومناهجه، سيد قطب ص ٣٢، دار الفكر العربي ١٩٥٤م، وانظر التصوير الفني في القرآن الكريم دراسة تحليلية ، جبير صالح حمادي، ص ٧٠ ، مؤسسة المختار ط/١ ، ٢٠٠٧م ، بتصرف.

أكملَ تصوير؛ ليشعرنا بها أتم شعور، وفي ذلك بيان خصيصة من خصائص القرآن الكريم، وهذا سرٌّ من أسرار بلاغتِه وإعجازهِ النفسي .

ثانياً : مرحلة الوصف القولي.

تصور آيات سورة الزخرف مرحلة " الوصف القولي" في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ، أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾.(١)

حينما جعلوا لله ﴿مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾، ومن ثم أراد الرحمن وصف حالتهم من خلال أقوالهم، ولم يكن وصفًا مجردًا بل جاء بالحجة والبرهان؛ لإقحامهم ولإبطال ما يقولون ؛ ليشرح لهم حالهم ويترك لهم الإجابة عن سؤاله.

لذا كشف النظم القرآني عن أمورٍ نفسيةٍ في غايةِ الدّقةِ، ومن ثم أفادت الآيات مرحلة (الوصف القولي) الناتج عن معتقدهم وهو كفرهم بسبب قولهم هذا، ففي قولهم ما يلوح بالخبر ويرشد إليه.

والجزء: بعض من كل، ولذلك يقال للولد: بضعة؛ لأن الولد بعض أبيه، وجزء منه، كما يطلق الجزء أيضًا على الأنثى فيقال: أجزأت المرأة إذا ولَدت أنثى"، (٢) ومن ثم فقد أُطلِقَ الجزءُ على ما نسب المشركون وأهل الكتاب من الذرية والنسل إليه سبحانه وتعالى .

بيد أن نَظْم الآيةِ لم يسلُكْ هذا المسلك في ذكر هذا المعنى، ولم يُرِدْ أن يصوره بتلك الصورة، وإنما جاء بالوصف القولي عن طريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

---

(١) سورة الزخرف ، الآيات ١٥: ١٨.
(٢) انظر التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور المجلد (١٢) ٢٥/ ١٧٦، دار سحنون تونس ١٩٩٧م.

حيث شبه البنات بالجزء الذي هو بعض من كل بجامع الجزئية في كل، ثم حذف المشبه "البنات" واستعار لفظ المشبه به "جزءًا " للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية؛ لأن " تأثير الاستعارة في العواطف والنفوس يعتمد على رسم الصورة والصفات والأعمال ، وعرضها عرضًا حسيًا مجسَّمًا؛ ليرى السامع في لفظها من المعاني والألوان ما يراه إذا نظر إلى رسم ، أو تبصَّر في تمثال "(١)

ومن ثم فالاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة وأدل على غرض الآية، وبيان المراد منها؛ وذلك لأن الجزء وإن كان بمعنى البنت، والجامع لهما واحد وهو الجزئية إلا أن الجزء الذي له نفاذ تأثير في الكلية كالبنات فهي أشد أثرًا في المجتمع من الجزء الذي بمعنى البعض، فربما لا يكون له أثر أصلا بخلاف البنت في المجتمع فإن لها أثرًا، ولا بد من وجودها؛ لكي تكتمل نواميس الكون.

لذا نرى أثر تلك الاستعارة في سياق هذه الآية حيثُ تَكْمُن بلاغتُها في دعوته -ﷺ- لإبطال هذا المعتقد القولي، كما أن فيها إشارةً إلى اختلال نظام الكون لو ثَبَتَ هذا المعتقد الشِرْكي.

فكلمة ﴿جُزْءًا﴾ هنا لها دلالة لا توجد في غيرها، منها : الجُزْء: القطعةُ من الشيء، ومنها : الجُزْءُ الذي لا يتجزأ بحيث يكون غيرُ قابلٍ للانفصالِ عن أصلِه، فالأنثى جزء من طبيعة الكونِ لا تنفصلُ عنه؛ لأن بانفصالِها تتغير نواميسُ الحياةِ فهي الأم ، والأخت ، والزوجة، والابنة ، ومن ثم فهي "جوهر ذو وضعٍ لا يقْبَل الانْقِسام أَصْلاً، لا بِحَسَبِ الخارج، ولا بِحَسَب الوهْم، أَو الفَرْض العقليّ". (٢)

ومن ثمَّ ورد التنكير في قوله: ﴿ جُزْءًا﴾ للتقليل من شأن البنات؛ لأنها تسبب لهم الحزن وعدم الرضا.

---

(١) انظر من أسرار التعبير في القرآن الكريم " بناء التراكيب" د/ عبد الفتاح لاشين ص ٥٨، دار الفكر العربي ط/١، ٢٠١٤م.
(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مادة: "جزأ"، مكتبة الشروق الدولية ط/ ٢٠٠٤م.

ومن هنا جاءت الاستعارة في لفظة ﴿جُزْءًا ﴾ دالة على هذه المعاني كلها ومشيرة إليها؛ وذلك لأن التصوير البياني في القرآن الكريم يُحْدِث أثرًا في نفوس سامعيه، والذي ينتج عنه تغييرٌ وتحوّلُ، فهو يقتلعُ ما يترسَّبُ في العقول من الرواسبِ والعاداتِ والتقاليد الموروثة من الجاهلية الأولى، فيُحدِثُ بتلك الاستعارة أثرًا بالغًا في هذه النفوسِ، ناهيك عمَّا في اللفظة من الجرس القوي المُجَلْجِل الذي يُوحي بدلالاتِ هذهِ اللفظةِ وإيحاءاتها.

لذا لم يقل الحق-ﷻ-:"وجعلوا له ولدًا"، كما لم يقل أيضًا: "جعلوا له جزءًا"، ولكنه آثر ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ لأن كل ما في الوجود عبدًا لله تعالى، ومن هنا تتجلى بلاغة النظم القرآني من خلال هذه الاستعارة ودلالاتها في بيان (الوصف القولي) عند هذه الفئة ، لترك الأثر العظيم البالغ في هذه النفوس الضعيفة.

ناهيك عن الأسلوب الإنشائي الطلبي المعبّر عنه بالاستفهام في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾، حيث خرج من معناه الحقيقي وأريد به التعجب، إذ يريد المولى-ﷻ- أن يسجل على الكفار كفرهم بأقوالهم، فمع اعتراف الكفار بأن الله خالق كل شيء جعلوا له شريكًا وولدًا!!.

فكيف يكون له ولد، والولادة من صفات الأجسام، وهذا خالق الأجسام كلها، ففيه تعجب من جهلهم، كأنه يقول لهم: هل اتخذ الرحمن لنفسه البنات، واختار لكم البنين؟ أليس لديكم عقولًا تعقلون بها بأن تجعلوا لله الإناث، وأنتم تكرهونهن؟ وتجعلون لأنفسكم البنين الذين تحبونهم؟

فآية الزخرف تحتوي على وصف أقوال الكفار الذين افتروا على الله الكذب ؛ لذلك لم يذكر النظم القرآني لفظ "الأنثى" عندما ذكر مظاهر حزن من بشر بالأنثى واكتفي بقوله: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ حينما قال:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

حيث سيقت الآية الشريفة في معرض الإنكار والسخرية والتهكم مع التعجب من حالهم، فهذه الآية تبين نوعًا من أنواع الكفر الذي افتروه على الله ؛ "لأن نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصل الكفران كله"(١) إذ هم لم يكتفوا بنسبة الولد له-ﷻ- ، بل جعلوه أنثى في حين أنهم يكونون في غاية الهمِّ والحزن إذا رزقهم الله بنعمة البنات.

ويجب أن ننتبه لإعجاز القرآن في "الوصف القولي" حيث تحدث عن إعلان كفرهم وافترائهم على الذي خلق الأشياء كلها؛ ولهذا أورد الحق تسجيل أقوالهم عليهم بإبطال معتقداتهم الفاسدة، بنظم في غاية الإعجاز، وبتركيبٍ يقف أمامَه الذهنُ وينفعلُ به، حيث يتعجب من جهلهم بعظمة الله.

ومن ثم يقذف النظم القرآني ما يعتلج في داخل تلك الشخصية من أفكار ومشاعر وانفعال؛ ليكشف البواعث والخواطر والمحفِّزات التي تكمن وراءَها.

- **الفصل والوصل وبلاغته في المتشابه القرآني**.

أولا : " **الواو** " **العاطفة في آية النحل وبلاغة مدلولها** .

بدأ النظم القرآني في أية النحل بعطف جملة: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى﴾ على جملة: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٢) فجاء بـ " الواو" التي تدلُّ على "مُطلق الْجمع من غير إِشْعَار بخصوصية الْمَعِيَّة أَو التَّرْتِيب"؛(٣) لأنهم يشتهون البنين دون الإناث؛ لذلك قال-ﷻ-: ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾.(٤)

---

(١) يراجع تفسير الكشاف من حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، ٤٨٣/٣، الحلبي الطبعة الأخيرة ١٩٧٢م.
(٢) سورة النحل، آية ٥٧.
(٣) الفصول المفيدة في الواو المزيدة، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي ، تحقيق: حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان ط/١، ١٩٩٠م.
(٤) سورة النحل، آية ٥٩ .

وَمعنى ذَلك أن " الواو" هنا دلت على التَّشْرِيك بَين الْمَعْطُوف والمعطوف عَلَيْهِ فِي الحكم الَّذِي أسْند إِلَيْهِمَا، كأنه يقول: وإذا بشر أحد هؤلاء مما جعلوه لله من البنات يأنَفُ من ذلك غايةَ الأَنَفَةِ؛ -لأنهم يرضوا لله- حاشا لله- ، مالا يرضونه لأنفسهم، ومن ثم تعلوه كآبةُ من سُوءِ ما بُشِّر به ؛ لذا فهو يتوارى من القوم من خجله.

ومن ثم آثر النظم القرآني حرف العطف "الواو"؛ لأن العطف بها يحتاج إلى دقة في الإدراك، ولطف في الفهم، فهي لا تفيد سوى مجرد الربط بين متعاطفين لدلالتها على مطلق الجمع ، ومن ثم يحتاج الأمر هنا إلى بيان أسرار هذا الربط.

ومن هنا آثر الوصل بين الجملتين ؛ لأن بينهما تناسبا بين ما يصفون به المولى-ﷻ- وما يشتهون، وبين تبشيرهم بالأنثى من خلال الجمل الخبرية والتي تصف حال المخاطب، فإذا جرى في الذهن حال أحد الفريقين تصور حال الفريق الآخر، ليظهر الحالة النفسية لدى المتلقي.

ففي هذه الآية الكريمة يشترك العامل النفسي فيه بين معتقدات العصر الجاهلي ومعتقدات جميع العصور اللاحقة به باعتبار المفاضلة بين الأبناء من حيث نوع الجنس، إذ تُوافق تلك الآية المجتمعات المختلفة ممن يدركون أهمية زيادة سلسال الذكور عن الإناث، والمعبر عنها بقوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾.

ومن ثم جاء النظم القرآني بـــ "واو" العطف هنا ليربط بين جمله من أجل وصف الانفعالات السلوكية، والتي تتمثل في الحركات الجسمية فهو ﴿كَظِيمٌ﴾ ؛ والانفعالات الذاتيـــة: والتي تتمثل في حالات التهيؤ مثل سرعة دقات القلب وارتفاع ضغط الدم ، وبالتالي ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾.

ومن ثم يظهر الوصل مستوى معين من الانفعال الناتج عن مخالفة ما بشروا به لأنه خالف ما يشتهون، فجاء الوصل هنا؛ لتحقيق هذا الهدف، حيث أشار بشكلٍ واضحٍ لكثيرٍ من الانفعالاتِ التي يشعر بها المتلقي، ومن ثم أفاد هذا العطف

التوسُّط بين الكماليْن؛ ، إذ لم يكن هناك سببٌ يقتضي الفصل وكانت بينهما مناسبةٌ تامةٌ في المعنى .

وللسياق القرآني أثره في الكشف عن المعاني التي تؤثر في النفس؛ لكونه من أبرز القرائن المعينة على فهم النص وتفسيره تفسيرًا صحيحًا بحيث يكشف عن المراد منه، ومن ثم فللسياق أثر بارز في ترجيحِ المحتملات، وبيان المجملات.

ثانياً : " الواو " الحالية في آية الزخرف وبلاغة مدلولها .

نجد النظم القرآني في سورة الزخرف جاء بـــ" واو" "الحال"؛ لبيان مظاهر حزن من بشّر بالأنثى حينما قال:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾.(١)

ونلمح معنى الحال؛ لأن الجملة في موضع الحال من ضمير النصب،(٢) في قوله-ﷻ: ﴿ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ المعطوفة على مقول القول لقول مقدر في قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾،(٣) والتقدير: أم تقولون أتخذ الله مما يخلق بنات، وأصفاكم بالبنين في حال أنكم إذا بُشِّر أحدكم بما ضرب للرحمن مثلا ظَلَّ وجهه مسودًّا.

ف "الواو" هنا استئنافية، (٤) وعلى الرغم من التشـــابه القرآنـــي بـــين آيـــة الزخرف وآية النحل إلا أن النظم القرآني أراد أن يُفـــرِّق بـــين ســـياق الآيتـــين بـــ "الواو" العاطفة و"الواو" الاستئنافية، ففي آية "النحل" أراد النظم القرآنـــي أن يبين الجهة الجامعة بين الجملتين بحيث يعطيهما حكمًا مشتركًا.

---

(١) سورة الزخرف، آية ١٧.
(٢) التحرير والتنوير مجلد (١٢) ٢٥/ ١٧٩، و انظر دلالات الواو في النص القرآني د/ عيسى شحاته عيسى ، ص ٣٢٦، دار الآفاق العربية ، ط/١ ، ٢٠١٢م.
(٣) سورة الزخرف، آية ١٦.
(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة،محمودصـــافي١٣/٧٢ دار الرشيد ومؤسسة الإيمان بيروت لبنان .

أما في آية "الزخرف" أراد النظم القرآني أن يظهر أن تلك الجملة غير متعلقة بما قبلها في الإعراب؛ لاستئناف معنى جديد، لذا سميت بـــ "واو" الاستئناف؛ لئلا يتوهم أن ما بعدها من المفردات، معطوف على ما قبلها.

ونلاحظ اختلاف موقع "الواو" في أية "النحل" فهي عاطفة وتوافق الأثرِ النفسي لسياق الآية، ومن ثم جاء بالوصل دون الفصل، كما أن "واو" أية الزخرف حالية لمناسبتها سياق الآية الشريفة، وكلاهما ناسب حال المتلقي؛ لحكاية الحالة الماضية، واستحضار الصورة الغريبة العجيبة في الذهن.

ومن ثم جاءت "الواو" الاستئنافية غير العاطفة في سورة "الزخرف" دون سورة "النحل" على الرغم من تشابه الآيتين الكريمتين في هيئتهما ومضمونهما، فإن لكل كلمةٍ وكلِّ حرفٍ في القرآن معنىً في ضوء سياقها، قد لا يصح هذا المعنى لسياق آخر.

ومراعاة مساق الكلام ومنحى القول مهم، وإن كان المعنى الآخر صحيحًا، وهذا وجه من وجوه الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم والذي من خلاله هُدينا إلى كيفية تصوير السلوك الانفعالي، وبيان أثره في النفس، من حيثُ تعلقِه بشعور قائله وحالته العاطفية.

- **بلاغة الالتفات في آية الزخرف**.

ولأسلوب الالتفات أهمية كبيرة ؛ لما يتضمنه من معانٍ غزيرةٍ ، من خلال التفنن والانتقال من أسلوبٍ إلى آخر، هذا التفننُ والانتقالُ يؤدي إلى تنشيطِ السامعِ، واستجلاب صفائه، واتساع مجاري كلامه.(١)

(١) الموضوع ملخص من اكثر من مصدر أهمها : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، ص٤٠، دار الفكر العربي ١٩٩٨م، ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب ص١٥٠، المجمع العلمي العراقي١٩٨٣م، والإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي ، ص ٧٧، مؤسسة المختار ط/١، ١٩٩٩م.

ومن ثم قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.(٢)

بدأت الآية بمخاطبة الكافرين في قوله: ﴿وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾، ثم تحول النَسقُ إلى الإخبار عنهم بضمير الغَيْبة في قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم﴾ فمقتضى الظاهر أن يأتي بضمير الخطاب فيقول: "أحدكم"؛ ليوافق قوله:﴿وَأَصْفَاكُم﴾؛ لكننا نرى الحق سبحانه وتعالى أعرض عنهم إذْ كان الحديث متوجهًا لخطابهم؛ ليكون حالهم محكيًا إلى غيرهم ليتعجبوا من فساد أقوالهم وهذا تشنيعًا بهم.

"إذ نسبوا لله البنات دون الذكور وهو نقص، بينما كانوا يكرهون البنات ويَحقِروهُنَّ، فنسبتها إلى الله يؤدي إلى الاستخفاف بجانب الألوهية".(٣)

ودلالة الالتفات في تلك الآيات تُفهم من خلال السياق وقرائن الأحوال، إذْ جعلهم الله تعالى بسبب قولهم كالمبغضين الممقوتين الذين تتخطاهم الأعين، وتنصرف عنهم النفوس فلا يَحظَوْا من المولى -ﷻ- باهتمامٍ ، ولا يظفروا منه بخطاب .

ومن ثم أفاد الالتفات هنا دلالتين أولهما: تركيز الوعي باستحضار عظمة الخالق، ثانيهما: الغفلة والجحود والكفران؛ لإفادة الالتفات معنى الإعراض، المعبَّر عنه بضمير الغائب، ناهيك عما يحتويه من المبالغة في الذم لتأكيد الإلزام بما قالوه؛ لتشديد التوبيخ عليهم، وهذا المعنى يتناغم مع دلالة آياتِ سورة الزخرف، إذ احتوت على معانٍ مذهلة.

أما آية "النحل" فلم يرد فيها التفات بين قوله:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى﴾، فللسياق وقرائن الأحوال

(٢) سورة الزخرف، أية ١٦، ١٧.
(٣) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٣/٢٠٠، ط/ دار التراث ٢٠٠٥م.

عامل فاعل في استخدام الأسرار البلاغية في كلٍّ من الآيتين التي نحن بصدد الحديث عنهما.

- **السلوك الانفعالي بين الإيجاز والإطناب** .

القرآن الكريم كلّه إيجاز، سواءً في مواضع إجمالهِ أو مواضع تفصيلهِ، وتلك ظاهرة بارزة فيه؛ لذا نراه اكتفي بوصفِ مظاهرِ السلوكِ الانفعالي في آية النحل حينما قال:﴿وإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنْثَى﴾؛ لأن المقام هنا وقرائن الأحوال استدعى الإيجاز.

بينما أطنب في سورة الزخرف؛ لتحديد الفئة التي يريد أن يصف سلوكها الانفعالي فقال:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا ﴾، حيث آثر ذكر قوله تعالى: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا﴾ فجاء بالجار" الباء" والموصول "ما" وصلته المسند، والمسند إليه المحذوف تقديره:" ضَرَبَ هو" ومتعلق الفعلِ – المفعول الثاني–" لِلرَّحْمَنِ "؛[١] ليوافق ما سبقها من آيات، فاستدعى المقام هنا الإطناب؛ لإبطال مذهب الوثنية في مَعرضِ إبطال أنواع الشرك ، والذي يفهم من خلاله أنه –ﷻ– ينهاهم أن يضربوا له بالأمثال ، ومن ثم ذكر من صفات كماله ﴿الرَّحْمَنِ﴾ تأكيدًا لمضمون إبطال ما يضربون به المثل –حاشا الله–؛ لذا نرى النظم القرآني في المقامين السابقين لا يتجاوز سبيل القصد، وأن مراميه لا يمكن تأديتها كاملة العناصر بأقل من ألفاظه، ومن ثم "جاء الاطناب على التتمّة والتكملة لما قبله"[٢]

كما جاء بإيجاز الحذف عندما حذف المسند إليه والتقدير: "ضرب هو" ؛ لأنه (يستثمر دائمًا برفقٍ أقلَّ ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من المعاني)،[٣] ومن ثم أفاد حذف المسند إليه الاختصار والاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر.

---

(١) "بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا": "الباء" حرف جر، "ما" اسم موصول في محل جر متعلق بـ" بُشِّر"، و"ضَرَبَ"ماضي وفاعله"هو" والجملة صلة الموصول، و" لِلرَّحْمَنِ" جار ومجرور متعلق بـ"ضرب"، "مَثَلًا" مفعول به ثانٍ منصوب، والفعل الأول محذوف أي: ضربه.

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز يحي بن حمزة العلوي، تحقيق محمد عبد السلام شاهين،ص ٥٤٧، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان ،ط/ ١، ١٩٩٥م.

(٣) انظر النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، تحقيق: أحمد مصطفى فضيلة، ص ١٦٢، دار القلم ط/١١، ٢٠١٠م.

ولنا أن نتأمل في إعجازه لشدة إيجازه وإحكامه، حتى تكاد كلماتُهُ تتحولُ رموزًا تنطوي كلُّ كلمةٍ منها على معانٍ كثيرةٍ ؛ لذلك فإن الفهم الدقيق لإيحاءات النظم القرآني وإشاراته تستدعي يقظةً متواصلةً في قراءاته، وفكرًا واعيًا لتدبر مراميه.

- **الكناية وأثرها في آية الزخرف**.

عندما نتأمل أية النحل والصورة التي وردت عليها بتحديد مسمى ﴿الأُنْثَى﴾ صراحة، نجد أنها كانت مصدرًا لإيجاد كثيرٍ من المعاني التي تحتملها إذ تُظهر الانفعال السلوكي عند فئةٍ معينةٍ في العصرِ الجاهليِ، بوصف دوافعهم الشخصية النابعة من حالة الكفر الذي لحق بهم؛ وهي مرحلة (الوصف الفعلي) أي الوصف التنفيذي لفعل الوأد؛ لذا احتاج النص إلى صريح اللفظ المتحدَّث عنه دون الكناية عنه.

أما في آية الزخرف آثر النظم القرآني قوله: ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾؛[1] للدلالة على الكناية عن موصوف أي : "الأُنْثَى " أي بُشر بالجنس الذي ضُرِب به لله مثلاً ، حيث جعله مثلا وشبيهًا به في الألوهية، إذ جعلوا جنس الأنثى جزءًا لله – حاشا لله– ، أي : "منفصلا منه فالمبشَّر به هو جنس الأنثى ، والجنس لا يتعين ، فلا حاجة إلى تقدير: بُشِّر بمثل ما ضربه للرحمن مثلا".[2]

وهنا لفتة بلاغية عظيمة أراد الحق سبحانه أن يبرز بها تلك التهمة ، وذلك الافتراء، والكفر الذي ارتكبوه في حق الخالق ، فجاء بالكناية ليحرك الذهن ويوقظ الانتباه؛ بأن أولئك الغاضبين المحزونين إنما حزنوا من شيء رُزِقُوا به، ولو لم يَرْضَوْه لأنفسهم، ونسبوه للخالق، ولو جاء لفظ "الأنثى" صريحًا لما أفاد تلك النكتةَ المرادةَ.

---

(١) سورة الزخرف، آية ١٧.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥/ ١٨٠.

والتعبير بالموصولية ﴿ما﴾ هنا لنكتةٍ بلاغيةٍ لطيفةٍ أخرى، وهي وصف تلك الأنثى بأنها ضُرب بها مثلا لله، ولو عبَّر بلفظها الصريح لما أفادت ذلك المعنى ؛ لذا جيء بجملةِ الصلةِ لما لها من مناسبةٍ عظيمةٍ في السياق التي وردت فيه، ولو عبَّر بلفظها صريحًا ثم جاء بهذا الوصفِ لجاءَ بالتطويلِ في الكلامِ، والعرب كانت تستهجن التصريح بالأنثى، حيثُ كان يقوم أمر النساء عندهم على الستر؛ لذلك كَنَّى النَّظْم القرآني عنها أيضًا بقوله : ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾، لبيان ضَعْف الأنثى.

ولأسلوب الكناية أثره الخاص الذي يميزه عن غيره من أساليب البيانِ، وتكمن بلاغته في كونها "تُعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها، وتذكر القضية وفي طياتها برهانها الشاهد عليها"،(١) فما بالنا بالكناية في القرآن الكريم فإنها " فوق طاقة بني الإنسان؛ لما فيها من روعة التعبير، وجمال التصوير وألوان الأدب والتهذيب، مالا يستقل به بيان، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوةَ القرآن".(٢)

ولا يخفى أن الزيادةَ في المبنى هي مظهر من مظاهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الكلام بين التصريحِ والكنايةِ ، فضلا عمَّا تجعله الكنايةُ من الحدّةِ والارتفاعِ والاهتزازِ بالنفس؛ لبيان بُعد مدى قولهم الوصفي في ذات الله العليا؛ لتكون أشد تأثيرًا في النفوس، ومن يَعْكُفُ على دراسة القرآن يجدْ هذا الوصفَ الدقيقَ والتشخيص الحي لكثيرٍ من الانفعالاتِ النفسيةِ التي يشعرُ بها الإنسانُ في حياتهِ التي تنبئ عن أحاسيس شعوريةٍ حادّة في الأعماق، مع بيان كيفية معالجتها.

---

(١) انظر مقدمة الكناية والتعريض لأبي منصور الثعالبي ص ٤٤ ، تحقيق د/ عائشة حسين فريد ، دار قباء ط/١، ١٩٩٨م.

(٢) الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم د/محمود السيد شيخون، ص ٨٧ ، مكتبة الكليات الأزهرية ط/١، ١٣٩٨هـ.

المبحث الثاني:

نظرات في الكلمة القرآنية وأحوالها "في آيتي النحل والزخرف".

تمتاز الكلمة التي تتألف منها آيتا النحل والزخرف بالميزات التالية:

- **مادة الكلمة وجمال وقْعها على السمع** :

قال تعالي: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى﴾ آثر التعبير بلفظ ﴿بُشِّرَ﴾ والبُشْرَى: ما يُبَشَّر به،(١)وآثر مادة البُشَارة؛ لأنها تحملُ دلالةَ الخبرِ السارّ والمُفرِح، كما أنها تفيد عدم علم المُخْبَر به؛ لأن في اللفظة دلالة على وقوع المفاجأة على النفس، وظهور ما يترتب عليها من سلوك انفعالي يكشف عن أمورٍ نفسيةٍ في غايةِ الدقةِ، ينتجُ عنه حالةَ تأثِيرٍ وتأثُّرٍ في الفردِ والمجتمعِ المحيط بهِ، ولم يأتِ هذا اللفظ لكي ينبو عن السمع، أو يتنافر مع ما قبله أو ما بعده، فالكلمة القرآنية في الذروة من الفصاحة، وهي تحمل معانٍ شتَّى في طياتها.

ومن ثَمَّ بني النظم القرآني الفعل ﴿بُشِّرَ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعله، حيث جاء المسمى مُبْهَمًا، فالواجب أن يبقى على إبهامه؛ لأن تعيين الفاعل غيرُ مهمٍ، بل المهمُّ هو بيانُ ردِّ فعل المُبَشَّر على البشارة بالأنثى، وليس تعيين من يقوم بالتبشير؛ لأن الهدف من تلك القصة هو الأمر الذي سيق من أجله الكلام ألا وهو الاعتبار والاتعاظ ، أما كونه فلانًا أو فلانًا لا يهم ؛ لذا عبَّر بالأمر الواقع ؛ لوقوع حدثه.

فلفظ الفعل الماضي وبناؤه للمجهول يدلّ على أن المراد ليس الفاعلُ للبشارة ، أو بيان المبشِّر، ولكن المراد هو الفعل ومادته ، وبيان المُبشِّر به، فالحق سبحانه يبين أن المقام كله للبشرى والسرور والراحة، وليس للهمِّ والغمِّ والسَّوء كما عبّر عنه الظالمون لأنفسهم ،الضالون عن هَدْي ربهم.

---

(١) لسان العرب ابن منظور راجعه نخبة من الأساتذة المتخصصين١/ ٤٢٤، دار الحديث ٢٠٠٣م.

كما أن بناء الفعل للمجهول فيه إشارة إلى أن هذه البشارة قد تتابعت عليه من كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وأُلقيتْ على مَسْمَعِهِ، حينما تعددتْ مصادرُ هذه البشارة وتنوعت؛ لأنها في حد ذاتها بشارة بشيء يحمل الفرح والسرور، ومع ذلك كان يقابل هذا كله بالإعراض والاستنكار المتمثل في سواد الوجه، وفي هذا دلالة على كفره بهبة الله تعالى التي وهبها له.

ولكن العجيب أن هذا الخبر الذي يستحق البشارة أصبح وجه صاحبه مسودًّا، أتعرفون متى يسود الوجه؟ إنه لا يسود لأي انفعالٍ أو غضبٍ، بل يسودُّ الوجهَ لنزولِ مصيبةٍ تُقْصِمُ الظهرَ، وتُفْسِدُ العمرَ، ولكن تسودّ هذه الوجوه عند أهلِ الجاهليةِ بسبب التبشير بالأنثى.

فعلى الرغم من الإخبار بولادة الأنثى يُعتبر تبشيرًا، لكن المشركين لا يعتبرونه تبشيرًا، لذا عبَّر بالفعل ﴿بُشِّرَ﴾ على سبيل السخرية؛ لأنهم لا يعتبرونها بشارة سارة، ومن ثم أفادت التعريض بالتهكم؛ وذلك لأنهم يَعُدُّون البشارة مُصيبة، وذلك من تحريفهم للحقائق.

وأسلوب التعريض يُفهم من العبارة والسِّياق الذي يحفُّها ويكتنفها، ثم المقام الذي وردت فيه، إذ لم يكن النظم القرآني يشير إلى الفعل المبني للمجهول الوارد إليهم إلى معنى البشارة الحقيقية، وإنما قُصِدَ تقريرهم بالفعل وإثباته عليهم بدليل قوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ؛ لإظهار الأسلوب التعريضي، حتى يبلغ غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم؛ لأنَّ البشارة لا تجتمع مع الحزن والكآبة، ومن ثم استحال أن يكون لفظ التعريض مفردًا، ولزم أن يكون مركبًا من دلالة وسياق ومقام لفهم محتواه.

ويَكْمُن جمال التعريضِ هنا من دلالة لفظ "البشارة"، ومن ثم تتحول في أسلوب التعريض إلى ذرائع ووسائل لتوليدِ المعنى التعريضي، وهذا بدورهِ يصبحُ ذريعةً ووسيلةً؛ لتحقيق الغرض المساق له الكلام.

ويجوز أن تكون الآيةُ الشريفةُ سلكت مسلكًا عجيبًا، فقد ذكرت المعنى وأداته من خلال الاستعارة التهكمية في قوله: ﴿بُشِّر﴾؛ وذلك لأن البشارة هي الإخبار بما يُسِرّ المُخبَر ويُسعده ، فكيف يُسر ويُسعد وتتملك منه تلك التقاليد والعقائد الجاهلية .

وهذه الاستعارة فيها تهكم لذلك الزوج الناكر الجاحد لهبة الله تعالى التي منَّ بها عليه، كما أن في هذه الاستعارة التهكمية حَطٌّ من شأن ذلك الجاحد، فهو جديرُ بهذهِ السخريةِ، وبذلك التهكّمِ والاستهزاءِ.

فكأن في هذه الاستعارة التهكمية إشارة إلى موقفه من نوع وجنس مولوده، "الأنثى"، فلما كان مُصِرًا على جحوده وكفرانه فضحه الله تعالى بظهور مظاهر الحزن على جوارحه الظاهرة من خلال سواد وجهه، وإن كان التعريض أبلغ؛ لأنه حزن وأنكر أمرًا اجتماعيًا سائدًا، فلزم تصحيح المفاهيم، وإرساء قيمة اجتماعية مهمة – والله أعلم–.

- **دلالة أسلوب الشرط وبلاغته في السياق**.

ولزيادة جمال مادة البشارة سبقت بـــ ﴿إذا﴾ الشرطية؛ لإفادة انتشار هذه الظاهرة وتكرارها عند القبائل في الجاهلية وشيوعها عبر الأجيال فلزم التقييد بـــ " إذا"؛ لأن "الشرط أسلوب لغوي مكون من جزأين، يتحقق الثاني بتحقق الأول، ولا يمتنع – ضرورة – بامتناعه، ومن ثَمَّ يجب تأكيد الارتباط بين جملةِ الشرط وجملة الجواب".(١)

والشرط هنا وقع لوقوع غيره، حيث إنه توقف تحديد قوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ على نوع البشارة ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى﴾، فجملة الشرط هي المعلق

(١) انظر، دلالات الارتباط في أسلوب الشرط، دراسة في نصوص من صحيح البخاري، أبو بكر زروقي ، ص٣، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر ،بسكرة الجزائر، وانظر قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ، سناء حميد البياتي ، ص٣٥٣، دار وائل للنشر، ط/ ١، ٢٠٠٣، الأردن.

عليها، وجملة جواب الشرط هي التي يترتب عليها الفعل، وإذا وقع الأول وقع الثاني، وهذا هو الأصل.

فالارتباط بين عبارتي الشرط والجواب ارتباطًا سببيًا تلازميًا؛ لأن عبارة الجواب مسبِّبه عن عبارة الشرط ولازمة لها، فإن سواد الوجه سببه أنه بُشِّرَ بالأُنثى، فيتحقق سواد الوجه بنوع البشارة التي جاء بها المبشِّر ليبشر هذا الزوج.

والشرط وفعله وجوابه يستدعي أنه ينكر فضل نعمة الأبناء على الآباء بصفةٍ عامةٍ، ومن ثم يجب أن يراعى سياق الجملة الشرطية لفَهم دلالتها.

وقد تمَّ توظيفُ أسلوب الشرط هنا خيرَ توظيفٍ، حيث استُخدِم في الحالاتِ التي فيها ترتيبُ شيءٍ على غيرِهِ، وكان بمنزلة الحقيقة التي لا تقبل الشك! وهنا نلمَسُ بلاغةَ استخدامِ أداةِ الشرطِ المناسبةِ للمعنى وللواقعِ المتحدَّثِ عنه، ومن ثم آثر أداة الشرط ﴿إذا﴾ دون "إن" ؛ لأنَّ سواد الوجه والحزن متحققٌ عند معرفته لجنس المولود، ولكنْ لو أتى في غير النظم القرآني بـ "إن" لأفاد أن هذه الفاحشةِ محتملة وغيرُ متحققة؛ ولإفادة "إن" قلة وقوع الحدث وعدم انتشاره بين الناس.

والنفس البشرية إذا صادفت لذّتها في رحلةِ تلقّي آيات الذكر الحكيم، تعلقت بالنص القرآني؛ لما يثيره من لذةٍ ومتعةٍ يستحثها إلى استشراف آفاقه الذي تربّع على قمةِ العنايةِ بالأثر الانفعالي؛ لأن آياته الكريمة ما هي إلا بحثٌ في خبايا النفس الإنسانية لمعالجتها، بما تأنس إليه وما تنفر منه، وما يبعث فيها الأريحية، وما يثير فيها الوحشة والاضطراب.

- دلالة التعبير بلفظ ﴿أَحَدُهُمْ﴾ .

أما لفظة: ﴿أَحَدُهُمْ﴾ تشير إلى ما يُلَوِّح إليه الخبر ويرشد إليه، ومن ثم ولَّدت في النفس سؤالاً لماذا ذكر النظم القرآني لفظ ﴿أَحَدُهُمْ﴾ ولم يقل : وَإِذَا بُشِّروا بِالأُنثَى"؟ لو جاء النظم القرآني بأسلوب الجمع لما وجدت الأم التي تلد الأنثى وأيضًا لما وجدت الأخت والزوجة، ولو عبَّر بالجمع لفقدنا المصداقية من الخبر إذ ما زال عندهم الأنثى ترزق.

كما أن الحديث هنا مقيد بقوله: ﴿أَحَدُهُمْ﴾ وهذا واضح؛ لأن من يعترض على هبة الله تعالى له فقد خرج عن منهجه، ومن ثم يقول-ﷻ-: ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.(١)

ولما كان مظاهر حزنهم مُشين، وبلغ القمة في الطغيان أورد الحق-ﷻ- التعبير بـــ ﴿أَحَدُهُمْ﴾ للتنصيص على كلِ فردٍ ينتابه هذا الشعور النفسي، للدلالة على أنه يمكن أن يتخلف أحد منهم عن كره التبشير بالأنثى؛ لأنه لم يُرِد تقييد الحكم بالعدد، وإنما هو إطلاقٌ لمطلق العدد؛ لأن سياق الكلام دلَّ على إثبات الحكم من غير عددٍ محددٍ.(٢)

وفي ذلك دلالة على توافق مظاهر حزن من بشِّر بالأنثى عند بعض المجتمعات المختلفة غير قاصرة على العصر الجاهلي، وهذا يدل على أن القرآن الكريم معجز، ومعجزته معنوية صالحة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لذا نأخذ منه دائمًا العبرةَ والعظةَ.

أو يكون الكلام موجهًا للحديث عن الكفار وأن الضمير في "هم" للذين فعلوا ذلك هم الكفار، وقوله: ﴿أَحَدُهُم﴾ أي أحد الكفار المخاطبين بالآيات ابتداء، وجاء

(١) سورة الشورى، آية٤٩.
(٢) النحو الكافي ١/ ٢٩٠.

التعبير بـــ﴿أَحَدُهُم﴾ ليدل على أن حال الكفار واحدة؛ لأن التبشير بالأنثى لأي أحد من الكفار بدون استثناء يوقعه في هذه الحالة السيئة.

لذلك احترس النظم القرآني بقوله:﴿ أَحَدُهُم﴾ لئلا يظن ظان أن هذه عادة كانت تحدث بصفة عامة عند جميع فئات المجتمع في ذلك الوقت أو في العصور اللاحقة؛ كما أنهم ليسوا جميعًا من يظهرون مظاهر الحزن والأسى عند تبشيرهم بالأنثى، ولكن مَنْ يَظْهَر عليه مظاهر الحزن فئة منهم.

والاحتراس أسلوب من الأساليب البليغة، من خلاله يتم التنبيه على ما يمكن أن يلتبس فهمه في بعض الموضوعات التي يطرحها القرآن الكريم، من قضايا العقيدة، أو الشريعة، أو القصص والأخبار – لا لعلة في النظم الكريم، بل لقصور في السامع والمخاطب– لئلا يُساء تفسيره، فيحمل على غير مراده.

ومن ثم يجلي هذا الأسلوب وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني، حيث يبين دور البلاغة في الدعوة إلى فهم مراد الله، بالإضافة إلى ما يتركه من أثر في نفس المخاطب؛ لأنه يهدف إلى إزالة ما يَعْلَقُ في الأذهان من سوء الفهم، كما أنه يُشكِّل منهجًا تربويًا، فهو يعلِّم المَرء كيف يحتاط في أقواله وأفعاله.

وهذا ما هديت إليه– والله أعلم–، وهناك أسرار جَمَّة تفوق الحصر في آيـــات القرآن الكريم قلَّ من ينتبه إليها، وهي أمور خفيِّة لا تُـــدرك بســـهولة، ولكننـــا نستعين بالله تعالى على فهم كتاب الله، وندعو المولى–ﷻ– ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. (١)

– إيثار قوله : ﴿بِالأُنثَى﴾ في آية النحل .

"الباء" في قوله: ﴿بِالأُنثَى﴾ للإضافة؛(٢) لتعدية فعل البشـــارة، حيـــثُ أضـــيفت البشارة بـ " الباء" إلي "الأنثى"، لتعلقها بذات الأنثى، ومن ثـــم حـــذف المضـــاف المعلوم ،(٣) على سبيل الإيجاز بالحذف.

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٦.
(٢) معاني الحروف للرُّماني النحوي، تحقيق عرفان بن سليم العشا حســـونة الدمشـــقي ص٤، المكتبة العصرية صيدا بيروت ٢٠١٤م.
(٣) التحرير والتنوير مجلد (٧) ١٤ /١٨٤.

فكل كلمة تسقط من العبارة، وتكون مفهومة من سياق الكلام تدخلُ في إيجاز الحذف، وهنا حُذف المضاف، والتقدير: وإذا بشّر أحد هؤلاء الّذين جعلوا للّه البنات بولادة ما يضيفه إليه من ذلك له؛ لدلالة السياق والمقام وقرائن الأحوال عليه، والحذف أكسب النص ملامح ومحاسن بلاغية، إذ عبَّر عن الأفكار الواسعة والمعاني الكثيرة بأقلِ عددٍ من الألفاظ.

ولكوننا نضع اللاترادف قاعدةً في فهم ألفاظ القرآن الكريم ومن ثمة عدم الاشتراك اللفظي بين مفرداته فإنه يحقَ لنا طَرْحَ هذا التساؤلَ: هل البنات هم الإناث؟

ورد لفظ "الأنثى" في القرآن الكريم بصيغ الإفراد ، والمثنى، والجمع ثلاثين مرة أغلبها في سور مكية، فما جاء منها في السور المكية ارتبط بمسألة الخلق، وبمسألة العمل والجزاء، والتسوية بين الذكر والأنثى، ثم بموقف العرب قبل الإسلام من الأنثى كما هو وارد معنا في سورة النحل.

أما ما جاء من اللفظ في السور المدنية، وهو قليل فقد جاء في سياق بعض التشريعات المتعلقة بالإرث والقصاص، وإرجاع تحديد جنس المولود إلى مشيئته -ﷻ-.

كما ورد لفظ "البنات" بصيغ الإفراد، والمثنى، والجمع في ثماني عشرة مرة في القرآن الكريم ، وفي سياق بعض التشريعات المتعلقة بالإرث والزواج.

ولكن النظم القرآني آثر لفظ " الأنثى" دون غيرها في سورة النحل ؛ لأنه لفظ يدل على العموم فهو أعم من المرأة والفتاة والبنت، إذ الفتاة هي الشابة، والبنت ضد الولد، والنساء اسم جمع المرأة.

كما أن لفظ الأنثى يحمل معنى الأنس والشعور والإحساس؛ لذا ارتبط اسمها بالبشارة، إذ الأصل في ولادتها أنها تحمل أنسًا لأهلها، تحبهم وترعاهم، وتخدمهم، ومن ثم أطلق على ولادتها لفظ البشارة .

ومن ثم جاء لفظ " الأنثى " معرَّفًا بـــــ" لام" الجنس أي: جنس الأنثى من حيث النوع؛ لذا وافق اللفظُ السياقَ بما لا يدع مجالا لاستبداله؛ لأنه أُحكم في نسيج نظمه.

وبهذا يتضح الفرق الدقيق بين "الأنثى" و"البنات" في التعبير القرآني العظيم، وأنهما ليسا مترادفين، وإذا كان الخطاب هنا موجه للناس فمن الطبيعي أن تكون الإناث جزءًا من الناس وضمن الناس وليس خارج دائرتهمِ، ومن ثم فاللفظ يحمل دلالةَ العمومِ – والله أعلم-.

- **جمال الكلمة باتساقها مع المعنى** .

انظر إلى كلمة: ﴿ضَرَبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ تُقدم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل أن تقدمه في معناها اللغوي المعروف، وكأن القارئ يشتم منها رائحةَ المعنى المطلوب، أو يلحظ فيها إشراقا يصور معنى حال الكفار عندما يرزقهم اللهُ بما لا يشتهون من البناتِ أمام الأعين، وفي الوقت نفسه هي منسجمة مع ما قبلها وما بعدها من الألفاظ، لا ثقلَ فيها ولا إغراب، وكذلك بقية ألفاظ الآية، فكلها توقع على السمع موسيقةُ رائعةً في منتهى الجمال لإظهار المعنى المراد .

والضرب: الجعل والصنع،[١] وجاء هنا بمعنى المِثْلُ والشكلُ، والمعنى أي: إذا بُشِّر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأَنفةِ وتعلوه كآبة من سُوء ما بُشِّر به ، والمثل : بمعنى الشبه ، أي : المشابه بأن يكون ضَرب المثل أنهم جعلوا الملائكة بناته سبحانه.

والولد يشبه أباه، ومن ثم جعلوه لله شبيهًا ونظيرًا له،[٢] فيكون ضاربهُ كضارب المثل للرحمن-حاشا لله-، على سبيل الاستعارة التمثيلية.

---

(١) اللسان ٥ /٤٧٨.
(٢) تفسير الكشاف الزمخشري ، بتصرف ٣/ ٤٨٢.

حيث شبه هيئة الذين جعلوا لله شبيهًا بهيئة ضرب المثل، ثم حذف هيئةَ المشبه ثم استعار هيئة المشبه به للمشبه، ومن ثم يصبح المثل ملازمًا إلى المولى– حاشا لله–.

وذلك ؛ "لأن كل إخبار بمَثَلٍ يصور المخبر في النفس، فهو ضرب مَثَلٍ؛ لأن المتكلم جمع مثلا في نفسه ونفس المستمع بالخبر المطابق للمُخبِر، فيكون المثل هو الخبر وهو الوصف، بما مثل لله، أو بما جعلوا لله، فشبهه شبها"،(١) وذلك ما وصفه به من أن له بنات –حاشا لله تعالى– فهو ﴿أَحَدٌ﴾ لا شريك له، ومن ثم قال هنا: ﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ﴾.

- <u>إيثار لفظ ﴿الرَّحْمَن﴾.</u>

الرَّحمن: اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: ذو الرَّحمة، وهو لفظٌ مشتقٌ من كلمة رحم،(٢) التي تحمل معنى العطف واللين، واسم الفاعل منها راحم، ودلالة الكلمة تدلُّ على مطلق القوة والقدرة والهيمنة .

وقد ورود اسم "الرحمن" في القرآن في بداية كل سورة منه عدا سورة التوبة، كما جاءت في معرض الحديث عن افتراء المفترين، بأن ينسبوا لله تعالى ولدًا، أو شريكا ليبين لهم رحمته بهم، إذ لا يأخذهم بذنوبهم على حين غِرة كقوله تعالى:﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾،(٣)﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾،(٤) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾،(٥) ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ

(١) الإعجاز القصصي في القرآن د/ سعيد عطية على مطاوع ، ص ١٥٤.
(٢) اللسان٤ /١٠٣.
(٣) سورة مريم، آية٨٨.
(٤) سورة مريم، آية٩١.
(٥) سورة الأنبياء، آية ٢٦.

وَلَدًا﴾،[١] ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾،[٢] ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾،[٣] ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾.[٤]

آثر لفظ ﴿الرحمن﴾ في كل ما سبق ليبين لنا رحمة الله بنا، بأن يذكِّرنا بأن الرحمةَ متلازمةَ مع ذلك الجبروت لا تنفكُّ عنها، أليس الجبار رحمن؟ أليس المسيطر رحمن؟ والذي سيعاقب المسيء يوم القيامة رحمن؟ !!

والتعبير بـــــ﴿الرحمن﴾ فيه مطابقة للمقام حيث إن رحمة الله هي التي أمهلته وجعلته يفعل ذلك، ولولا تلك الرحمة لأهلكهم الله إهلاكًا سريعًا على جرمهم وكفرهم.

كما أن في لفظ ﴿الرحمن﴾ من صيغ المبالغة إذ يعني الكثرة والديمومة؛ لأنه جاء على وزن "فَعْلَان"، ذكر الرُّماني[٥] أن من أبنية المبالغة وزن "فعلان" وعدَّ في ذلك لفظ ﴿الرحمن﴾ وتبعه كثير من العلماء كالباقلاني والزمخشري والسّيوطي وغيرِهم، "وكان المناسب أن يعاملهم برحمته ، فيمهلهم قليلًا ، ويديم عليهم النعم ، ولو بطش بهم لأهلكهم."[٦]

ولفظ ﴿الرحمن﴾ "لا يجوز أن يوصف به أحد مثل لفظ الجلالة الله"؛[٧] لأنهما اسمان لله وحده لا ينازعه فيهما أحد سواه سبحانه؛ لأنه يرزقهم وهم يعصونه ،

---

(١) سورة مريم، آية٩٢.
(٢) سورة مريم، آية٧٨.
(٣) سورة الزخرف، آية ١٩.
(٤) سورة الزخرف ، آية ٨١.
(٥) انظر النكت في إعجاز القرآن الكريم ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القــرآن ، الرمــاني – الخطابي – الجرجاني ، تحقيق: محمد خلف الله – محمــد زغلــول ســلام ، ص٥٥ ، دار المعارف ١٩٧٦م.
(٦) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم ٢٠٠/١، دار إحيــاء الكتب العربية، مطبعة الحلبي.
(٧) مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي،١٢/ ١٧٧ دارالفكر ط/١، ١٩٨١م.

فالرحمة أنسبُ شيءٍ للمقام لأنهم في أحوج ما يكونون إليه، وهذا من إعجاز القرآن ، حيث استخدم اللفظ في أنسب موقع من النظم والسياق.

- إيثار لفظ ﴿مَثَلا﴾.

قال تعالى: ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾ والمثل هو: الشبه المجانس للشيء وضرب الشيء مثلا أي: أخذه مجانسا ، واختيار النظم القرآني للفظ "مثلا" دون غيرها ؛ لأنها أعم الألفاظ الموضوعة للدلالة على المشابهة ، بخلاف اللفظ " الند " يقال: فيما يشاركه في الجوهر فقط، ولفظ "الشكل" يقال: فيما يشاركه في القدر والمساحة، بينما "الشبه" يقال: فيما يشاركه في الكيفية فقط، و"المساوي" يقال: فيما يشاركه في الكمية فقط ، أما لفظ " مِثل" فهو عام في جميع ما سبق.(١)

وبهذا ندرك سر التعبير بلفظ "مثلا" في آية الزخرف دون ذكرها في آية النحل، مبالغة لإطلاق العنان لمن ذكر ذلك المثل .

(١) انظر بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، الفيروزابادي ، تحقيق محمد على النجار ٤/ ٤٨١، المكتبة العلمية ، بيروت. وكذلك الفروق اللغوية : لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت:٤٠٠هـ) ، تحقيق: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان ، ط١: ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ومن بلاغة القرآن الكريم د/ إبراهيم طه أحمد الجعلى ص١١، مطبعة الحسين ط/١، ١٩٩١م.

المبحث الثالث :

بلاغة وصف انفعال وجه "مَنْ بُشِّر بِالأُنْثَى".

يعتبر الوجْه من جوارح الإنسان لاحتوائه على جارحتي العين والأذن، وقد وصف النظم القرآني مظاهر انفعال الوجه عند فئةٍ معينةٍ عندما يبشرون بنوعِ المولود "أنثى" بقوله:

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهوَ كَظِيمٌ﴾

ليظهر لنا أن الوجهَ هو مرآةُ الجسدِ، وهذا وصف قرآني عظيم ، نلاحظ من خلاله مظاهر الانفعال الواردة من سُوءِ ما بُشِّر به، ومن ثم آثر النظم القرآني الوصف بالفعل ﴿ظَلَّ﴾ الذي يفيد اتصاف الاسم بالخبر،(١) أي: يبقى الوجه مسودًا، وهذا يدل على عظيم التأثر والحزن بولادة تلك الأنثى لطول زمن التأثر، وهذا يدل على أن مظاهر انفعاله دامت واستمرت وبقيت وثبَتت على حالةٍ مُعيَّنةٍ، أي في كلِّ مرةٍ يبشر بالأنثى تكون حالته هكذا.

وقيل: ﴿ظَلَّ﴾ بمعنى "صار" أي تحول وجهه من حال إلى حال،(٢) وإذا كان معنى ﴿ظَلَّ﴾ هو: صار، فهذا يدل -أيضا- على عظيم الحزن الذي أورثه التبشير بالأنثى؛ لأن تحول الوجه من حال إلى حال لا يكون إلا بالتأثر العظيم.

وتفسير ﴿ظَلَّ﴾ على أصلها، وهو طول مدة الحزن أبلغ من التفسير بـ "صار"؛ لأن التفسير بطول الزمن يتضمن تحول الوجه إلى الاسوِداد، ولكن تحول الوجه إلى الاسوداد لا يتضمن طول زمن الاسوداد؛ لأن الوجه قد يتحول عن حالته ويرجع سريعا إلى ما كان عليه، ومن ثم فـ ﴿ظَلَّ﴾ تتضمنُ معنى "صار"، أما "صار" فلا تتضمن معنى ﴿ظَلَّ﴾.

---

(١) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني المؤلف: سامي وديع عبد الفتاح شحادة القدومي ،ص ١٢٠، دار الوضاح، الأردن – عمان .
(٢) التحرير والتنوير طاهر بن عاشور المجلد (١٢) ٢٥/ ١٨٠.

لذا آثر النظم القرآني لفظ ﴿ظَلَّ﴾ دون مرادفاتها:(اسْتَمَرَّ، بَقِيَ، ثَبُتَ، دامَ، لَبِثَ، مَكَثَ)؛ لدلالتها على الوصف الدقيق المبهم الذي يجعل الأذهانَ تتجول في معناه حيثما تشاء، وهذا من الإعجاز النفسي والبلاغي في القرآنِ الكريم– والله أعلم–.

كما آثر النظم القرآني لفظ "ظَلَّ " دون "بات" ؛ لتصوير مظاهر الانفعال وبيان طول مدة الانفعال لتملكها من تلك الشخصية حيث إنه يشعر بفشله من تحقيق زيادةِ السلسالِ الذكوري.

أما لفظ "بات" فإنه يفيد اتصاف الوجه بالاسوداد طوال البيات ليلا فقط، وكأن الخبر يأتيه ليلا لا نهارًا، ومن المعلوم أن النساء تلد في الوقت الذي حدده –ﷻ– لها ليلًا أو نهارًا ، وهذا اللفظ يدل على ثبوت الولادة ليلا، أو أن الحزن يلازم هذا الزوج الناكِرِ الجاحِدِ عند نومه فقط وهذا غير مراد.

ونلاحظ هنا أن التصوير لا ينبعث عن دلالة لفظ "ظَلَّ" فحسب، بل يتجاوز إلى مجال أرحب ليشمل اللَّوْن، والخُطوط، والظِّلال، وجَرْس الألفاظ ، ونغَمِ العبارات، والتخييل في سياق نصٍ متماسكٍ يستهدف في نهاية المطاف إلى توليد الصورة، إذ أن "التصوير الانفعالي يتم بواسطة الربط لتفاصيل أسلوب الأداء التعبيري".(١)

وهذا يدلُّ على جمال الدلالة التعبيرية لتلك الألفاظ ، ومن ثم أَرْدَفَ النَّظْمُ القرآني الفعل ظلَّ بجارحةِ الوجهِ فقال : ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ﴾

والوجه عضو من أهم أعضاء جسم الإنسان، من خلاله تظهرُ الانفعالات النفسية، والأحاسيس، وبواسطته وعَبْر العلامات التي تظهر عليه يمكن للناظر أن يتعرَّف على صاحبه ؛ لأنه الحاكي الأول لوضعه النفسي ، فالوضع النفسي للإنسان وما يكن داخله من انفعالات يظهر أول ما يظهر على الوجه.

(١) الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا تجربة الحداثة في مجلة شعر وجيل الستينات في سوريا»، لمؤلفه عبدالله عسّاف، ص ٣١.

ومن هنا فالوجه يشغل مكانةً مهمةً في التواصل؛ لأنه أكثرَ الأعضاءِ التي ننظر إليها عندما نتبادل الحديث مع الآخرين، فعن طريقه يمكننا التواصل مع المحيطين بنا.

وآثر مجيء الوجه؛ ليصف لنا مشهدًا حيًا، يرسُم كلماتهِ من خلالهِ الانفعالات النفسية التي انتابت من بُشِّرَ بِالأُنْثَى، والذي من خلاله تتفاعلُ جميعُ جوارحهِ في آنٍ واحدٍ، ثم تُدْمَج هذه الانفعالات في صورةٍ واحدةٍ وهي أن الوجه أصبح ﴿مسودًّا﴾.

ومن ثم ينقل النظم القرآني من خلال جارحةِ الوجهِ الصورة الحسية لذلك الإنسان، وكأنه حَدَثَ تفاعل بين حاسة "السمع" وهي من الحواس الظاهرة، عندما سمع الزوج بجارحة "الأذن" ما جاء به حامل البشرى، فتزداد عنده حالة الغضب والغيظ والحزن بسبب ما بُشِّرَ به، والذي من خلاله تزداد نبضات "القلب" بصورة سريعة، مما يؤدي إلى تدفق الدماء في جميع أنحاء جسمه، إذ يصعد الدم إلى الوجه فتتحول حمرته إلى سواد، بسبب احتباس الدم في الوجه، ومن ثم تؤثِّر تلك الحالة على الجهاز الحركي له.

وهذه الصورة تعكس لنا الموقف الذي يحدث لحامل البُشرى، عندما نتخيل "عيْن" حامل تلك البشرى، وكأننا نراه يحلق بعينيه بحيث لا يغمَضُ له جَفْن؛ لأنه ينتظر رضى المنال من ذلك الزوج إذ يبلغه قولا فيه بشارة، وهذا يحمل دلالةً عميقةً على الرضى النفسي لمن حُملت إليه تلك البِشارة، فمن المفترض أن تظهر عليه علامات الرضى، كما يظن حامل البُشرى، لكنه يرى شدة هول ما حَمله لذلك الزوج الناكر الجاحد لنعم الله تعالى .

فحامل البُشرى يرى تلك الانفعالات على المُبَشَّر له، وكأن النظم القرآني يصور لنا جميع الجوارح الظاهرة والباطنة في ذلك المشهد، سواءً لحامل البشرى ولمن بُشِّر بها، ومن ثم تظهر جارحة العين والأذن من خلال الوجه.

ومن هنا فالتعبير بالوجه نقل لنا الصورة الحسية لذلك الإنسان حيث أبرز وجسَّمَ لنا حال الوجه تمامًا، في دقة متناهية من حيث الإيحاء والدلالة على هذا المشهد.

ومن ثم آثر النظم القرآني التعبير عن مظاهر انفعال الحزن في هذه الحالة بذكر "الوجه" كله دون تحديدِ عضوٍ معين من أعضائه، ولو قال في غير النظم القرآني: "اسودت عيناه"، أو "أصبح فؤاده فارغًا" أو "شُلَّت يداه" ...أو أي تعبير آخر بإيثار جارحة واحدة من جوارح الإنسان لما وفىَّ الغرض المساق إليه النظم القرآني ، "إذ احتوى على اشارات تعبِّر عمَّا في ضمير صاحبه ، وتكشف عن حالته النفسية".(١)

يا لها من صورة أردت ذكرها في هذا الموضع؛ لتكون دلالةً واضحةً على اندماج تلك الجوارح في مظهرِ انفعال الوجه، وكيف صورهُ النَّظْمُ الكريمُ وبيَّن من خلالها حال أعضائه البشرية بأكملها، إنه حقًا ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.(٢)

ومن هنا هُدينا إلى توحُّد الصورة بين الجوارح الظاهرة والباطنة، فالملامح الخارجية المتمثلة في قوله: ﴿ وَجْهُهُ﴾ بدت عليها أمارات الغَم العميق ؛ إذ اربدَّ الوجه وقد تغيَّر متنكرًا لما بُشر به، ومن ثم علاه السواد من سُوءِ ما بُشر به، المتمثل في قوله: ﴿مُسْوَدًّا﴾

وهنا نرى آثار الحزن الشديد الذي أثاره الغضب كيف أفسد البنية الطبيعية للجسد، وحولته إلى صورة أخرى، حيث حلَّ عليه السواد، المتمثل في انفعال الجوارح الظاهرة والباطنة ، ففي الآية دلالة عميقة في الوصف، وكأن الوجه

(١) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ، د/ عبد الله محمد سليمان هنداوي ، ص ٨٤، مطبعة الأمانة ، ط/١، ١٩٩٥م.
(٢) سورة هود ، آية ١.

تحول من نور الفطرة إلى ظلام المعصية، حتى أثَّر الظلام فيه فاسودَّ، فاللَّوْن الأَسود هنا يُحِيل بظلاله في السياق إلى هذه الدلالة الشعورية.

لذا آثر التعبير بمادة ﴿مُسْوَدًّا﴾ التي على وزن (مُفْعَلّ)، وهي أحد أبنية اسم الفاعل من الفعل غير الثلاثي، نحو: أبيضّ فهو مُبْيَضّ، وأسود فهو مسودّ، وأخضر فهو مخضر، وأحولّ فهو مُحْوَلّ [١]، وهذه الأفعال كلها لازمة، إذ تكتفي بفاعلها ولا تتعداه الى غيره.

ولم يَردِ في القرآن الكريم بناء فعل على وزن (مُفْعَلّ) سوى ثلاثةِ ألفاظٍ جميعها مشتقة من الفعل (أفعلّ) الدالّ على اللون، وهي ﴿مُخْضَرَّةً﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [٢] و﴿ مُسْوَدّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ بصيغة المذكر، وبصيغة المؤنث﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾،[٣] و﴿مُصفرّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً﴾،[٤] ويبلغ مجموع المواضع التي ذكرت فيها هذه الألفاظ في القرآن الكريم سبعة مواضع.[٥]

وقوله: ﴿مُسْوَدّا﴾ جاء في القرآن الكريم على زنة (مُفْعَلّ) دالة على الاتصاف باللون على جهة الحدوث فهو ﴿مُسْوَدّ﴾، حيث اقترنت بصفةِ الوجه في المواضع الثلاثة التي وردت فيها في القرآن الكريم.

---

(١) بعض اللغويين لم يشيروا إلى اشتراك الوصف في بنائه بين الفاعل والمفعول من الفعل إفْعَلّ إما: لأنّه لم يُسمَع عن العرب ورود بناء الفعل المبني المجهول من الفعل إفْعَلّ، وإنّما المسموع هو بناء الفعل المبني للفاعل أو المعلوم أفْعَلّ ومضارعه يَفْعَلّ، وإما أن الغالب في (إفْعَلّ) هو دلالته على الألوان، ينظر شذا العرف في فن الصرف أحمد ابن محمد الحملاوي ص٥٢، دار الكيان ، فصول في فقه اللغة، رمضان عبد التواب = =ص٣١٠، مكتبة الخانجي، ١٩٩٩م، والمنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي تأليف: الدكتور عبد الصبور شاهين ص١١٥. مؤسسة الرسالة ط/١ ١٩٨٠م.

(٢) سورة الحج ، آية ٦٣.

(٣) سورة الزمر، آية ٦٠.

(٤) سورة الزمر، آية ٢١.

(٥) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٣٤، ٣٧٠، ٤٠٩، دار الحديث ١٩٨٨م.

في موضعين جاءت ﴿مُسْوَدّا﴾ في سياق ما اعتاده العرب في زمنِ الجاهلية من كرههم لولادة الإناث واستبشارهم بولادة الذكور، وفي موضعٍ واحد جاءت لوصفِ الكافرين الذين كَذَبوا على الله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ .(١)

ونحن بصدد الموضعين الأوليين، فأول ما يظهر من إعراض هذه الكراهة لولادة الإناث على الجاهلِ هو تغيّر لون الوجه والذي عُبِّرَ عنه بالاسوداد للدلالةِ على شدّة الكآبةِ والغضبِ.

قال ابن عاشور:" واسوداد الوجه: مستعمل في لون وجه الكئيب اذ ترهقهُ غَبَرة، فَشُبِّهَتْ بالسواد مبالغة".(٢)

فسوادُ الوجهِ كناية عن صفة التناهي في الغَمِّ والخزي والعار الذي لحق به بسبب ولادة تلك الأنثى، وفي ذلك يقول الشوكاني: (ليس المراد السواد الذي هو ضد البياض بل المراد الكناية بالسواد عن الانكسار والتغيير لما يحدث من الغم، والعرب تقول لكل من لقى مكروهًا قد أسود وجهه غمًا وحزنًا).(٣)

ومن إعجاز النظم القرآني اختياره اللفظة المؤثرة في النفس والتي تترك أثرًا لا ينسى لدى المخاطب أو المستمع ، فاللون من الأشياء التي تَعْلُق في الأذهان ولا تُنْسى لما لها من دلالة في النفس، وخاصة اللون الأسود ففيه دلالة على الغم والحزن والعبوس والعار والخزي، ولو قيلت هذه الألفاظ في وصف مظاهر حزن من بشر بالأنثى لمجَّتها الآذان؛ لأنها غير مستحسنة.

ومن ثم تكمن بلاغة الكناية في طبيعة اختيار اللفظة المؤثرة المعجزة التي لا تُعَافُّها الأذواق بأسلوب مهذب يصل إلى القلوب فتقف على حدوده، لتختلج خبايا

---

(١) سورة الزمر، آية ٦٠.
(٢) التحرير والتنوير مجلد (٧) ١٨٤/١٤.
(٣) فتح القدير، محمد بن على بن محمد الشوكاني، راجعه يوسف الغوش، ١٧٠/٣، دار المعرفة بيروت لبنان.

النفس البشرية، إذ كنايات القرآن الكريم تمتاز بجمال التعبير؛ لأنها تتعامل من النفس البشرية من منطلق المعرفة لدقائقها وخفاياها.

ناهيك عمَّا يحدث إذا قوي الغم وانحصر إلى باطن القلب، ومن ثم يظهر له أثر قوي في ظاهر الوجه، فيربد ويتغير ويصفر ويسود فتظهر من خلال تعبيراته أثر عدم الرضى.

ويتجلى سر التعبير الكنائي في أنه يترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه؛ لذا آثرها النظم القرآني لما فيها من دلالة وتصوير لما يرمي إليه، ومن ثم حسنت الكناية في موضعها، إذ دلت على أنه من لوازم الغم والحزن سواد الوجه، والذي من خلاله رسم لنا صورة هيئة هذا الرجل الذي بُشِّر بولادة الأنثى فوجهه مسودًا من الهم والغم والضيق، ودلالة الكناية توحي بالتعريض أيضًا إذا يعدون البشارة بالأنثى حزن ومصيبة، والتعريض من أقسام الكناية، والكناية تجامع الحقيقة.

ولمَّا كان ما يعرض للوجه من تغير لوني حالة طارئة حادثة مرتبطة بالتبشير عُبِّرَ عنه بلفظ ﴿مُسودّا﴾ من دون (أسوَد)؛ لأنّ ملازمة السواد للوجه غير مطلوبة على وجه الدوام وإنما لحالة آنية وقتية.

لذلك جاء جواب الشرط متصدّرًا بالفعل ظلّ؛" لأنه من أفعال الكون التي تدل على اتصاف فاعلها بحالة لازمة".(١)

ثم أنّه لو قِيلَ (أسوَد) لَدَلَّ على تحوُّل اللوْن من لوْن البشرة الطبيعي الى ذات اللوْن الأسوَد وهذا غير مراد ، وإنّما أُريدَ به التعبير عن الكآبة، فمعنى الحدوث مقصود مطلوب في هذا السياق.

وهذا التصور هُدينا إليه من جمال ورود صيغة اسم الفاعل حيث دلَّت على ملازمة الصفة للموصوف بها، وهذا يوضِّح عملية التحول، فمن المعلوم أن الوجه

(١) انظر تصريف الأسماء و الافعال فخر الدين قباوة ، ص ٥٩، مكتبة المعارف، بيروت ط/٢، ١٩٨٨م.

يتعكر بالحزن والاكتئاب ولا يصبح لونه أسود، ولكن عبر عن الوجه بأنه مسود؛ لأن الحالة الحاصلة ليست حالة حزن عادية، بل هي مصيبة قاصمة للظهر، عظيمة أيما عظمة، وفي مثل المصائب العظيمة ترى الوجوه من شدة احتقان الدم فيها سوداء، فالكفار إذن لم يكونوا يحزنون حزنا عاديًا عندما تولد لهم الأنثى، بل كانوا يحزنون أعلى درجات الحزن.

ومن ثم فاسوداد الوجه مستعمل في لون الوجه المكتئب، وشبه هذا الوجه بالسواد للمبالغة في إظهار انفعاله؛ لأن هذا السواد كانت نتيجة لشدة الغضب والغيظ إذ يصعد الدم إلى الوجه فتتحول حمرته إلى سواد.

وإيثار قوله: ﴿مُسْوَدًّا﴾ بهذه الدلالة قد ساهم في رسم متغيرات الأحوال في اسوداد الوجه، (وإن إثبات حدوث السواد في الصورة يتضمن الدلالة على أن بشرة الوجه لم تكن كذلك قبل حدوثه ، وهذا يوحي بأن الغمّ الذي تجسده تلك الصورة ، هو حال يطرآ على النفس بعد أن كانت على حال أخرى مغايرة لها أو مناقضة)[١].

ومن ثم جاءت الصورة القرآنية صورة حيّة محسوسة بحاسة البصر تحمل في طياتها معنًى جليلاً.

وهذه المعاني كلها أبرزتها الكناية التي اختصت بِميْزَةٍ عن التصريح وفي ذلك يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني (فهي كدعوى الشيء مع دليله ، ولا يخفى أن الكناية هنا صورت المعنى وأبرزته في صورة حسِّية واضحة أمام العيون كصورة سواد الوجه).[٢]

(١) البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية ، د/ محمد محمود القاسم، ص ١١٤، مكتبة الرشد ،ط/١، ٢٠٠٥م.
(٢) انظر دلائل الإعجاز عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي أبو بكر تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر ص ٤١٤، مكتبة الخانجي، ١٩٨٨م.

ويمكن حمل قوله: ﴿ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ على الاستعارة التصريحية، فيكون قد شبه قبح الكآبة، وقتامة الحزن الذي يعلو وجهه بسواد الوجه؛ لاشتراكهما في القبح وبشاعة المنظر، (١) ثم حذف قبح الكآبة والحزن الذي يعلو الوجه، واستعار سواد الوجه له على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وإن كانت الكناية أقرب إلى توضيح المعنى المراد –والله أعلم–.

ومن خلال الدلالة التعبيرية للجملة الانفعالية أردف النظم القرآني حالته النفسية بقوله:

﴿ فَهُو كَظِيمٌ﴾

لنرى تزاوجًا بين الحركات الجسدية التي ظهرت في اسوداد الوجه، وبين الحركات الداخلية المعبَّر عنها بقوله: ﴿ كَظِيمٌ ﴾ حيث اتحدتا لتعبّرا عمّا تكنه النفس من الحزن الشديد نتيجة كرهها للإناث.

ساعد على ظهور هذا المعنى ما ورد في سورة النحل من قوله: ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾،(٢)

ففيه رصد للتعبير النفسي المتمثل في التردد في اتخاذ القرار بإيثار حرف "أم" المتصلة أو المعادلة؛ لأنها جاءت بعد همزة التصور ووافق ما بعدها لما قبلها، وتلك الموافقة تُظِهر ما يدور في خاطر هذا الزوج الجاحد الناكر لنعم الله عليه من الإبقاء علي تلك الأنثى ويكون ذليلا ومهانًا بين قومه أم يدسها حية في التراب للخلاص من وصمة العار؟

ومن ثم اتخذ النص القرآني إبراز هذا الصراع النفسي ليكون وسيلةً لكشفِ خبايا قلب الشخصية وما يعتلج بداخلها من أفكار ومشاعر ، ليكشف كل البواعث والخواطر والمحفزات التي تكمن وراءها.

(١) انظر القرآن والصورة البيانية د/ عبد القادر حسين ص ٢٢٠، ط/١، ١٩٩١، دار المنار.
(٢) سورة النحل، آية ٥٩.

ومن ثم جاء بـــ﴿واو﴾ الحال[١] في قوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي أن حال صاحب هذا الوجه أن ظاهره مسود، وباطنه فيه شدة عظيمة من سوء ما بُشِّر به، ومن ثم فهو يحبس الغيظ بداخله؛ لذا وصف أن النظم القرآني الوجه بالسّواد، كما وصف النفس بكظم الغيظ ؛ ليبين أن أعمال القلوب إنما تكون سببًا في إعمال الجوارح المعبّرة عنها.

ووصف النفس بالكظم؛ لأن " كظم الغيظ " يدلّ على حبس ما يدور في النفس إذ امتلأت غيظا، والكظيم هو: الغضبان المملوء كربًا وغمًا، يقال: كَظَمَ السِّقاء: شده بعد ملئه مانعا لنفسه، ويقال: أخذت بكظمه أي بمخَرج نَفَسه، ورجل مكظوم وكظيم : أي مكروب لأن الغَمّ أخذ بكظمه، فسكت، [٢] والصورة هنا احتوت على وصف النفس البشرية .

والنظم القرآني آثر الاقتصاد في التأثير على الحسّ النفسي عندما قال: ﴿كَظِيمٌ﴾ ؛ لأنها لفظة مقتصدة تحمل كل أنواع التأثير في النفس، فلا يضيق بها السياق ولا ينفر منها؛ لذا تميزت بجمال وقعها في السمع ؛ ولحسن اختيارها في موضعها؛ ولاتساقها الكامل مع المعنى.

ومن أجل ذلك نرى الانسجام الكامل بين الفكرة التي يحملها اللفظ وبين المعنى الذي تحمله الآية، كل ذلك تم ربطه عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه حبس الغيظ في النفس بالكظم، بجامع الجهد والمعاناة في كل، ثم حذف المشبه ، وادعى أن حبس الغيظ من جنس الكظم ، ثم اشتق من الكظم كظيم ثم استَعَارَهُ للحبس .

---

(١) إعراب القرآن الكريم عبد الله علوان، خالد الخولي، محمد سنبل، السيد فرج ، جاد العزب، صبري عبد العظيم، وآخرين، راجعه فتحي الـــدابولي وآخـــرين ٢/ ١٢٠٩، دار الصـــحابة ٢٠٠٦م.
(٢) اللسان ٧/ ٦٧٥.

ومن ثم رَسَمَت الاستعارة صورة هيئة هذا الرجل وهو يكظم غيظه وغمه، كأنه ابتلي ببلوى ومصيبة، واتخذت الاستعارة التبعية طريقًا لها لتبين حال هؤلاء المشركين عندما يُبَشَّر أحدهم بالأنثى، مع بيان حاله من كظم غيظِه واسوِداد وجهه .

ومن عجيب ما يحدث في زمننا أن بعض المسلمين إذا بُشِّر بالأنثى صار وجهه مسودًّا من الحزن، وقلبه كظيما من الغيظ، وانقلب حزنه وغيظه على زوجته وأولاده ومن حوله، إذ يعاملون المرأة معاملة كما لو كانت ولادة الذكور باختيارها، فسبحان الله! ما أشبه الليلة بالبارحة!!

كل هذه المعاني أفادتها الاستعارة التصريحية التبعية ، إذ الاستعارة توحي بما يعانيه الكاظم من الجَهْد والعناء، وحبس الغيظ وكل ذلك شيء معنوي ؛ لذا جاء المشبه أمر عقلي، والكظم وهو المشبه به أمر حسي من شأنه توضيح المعنى وتوكيده، وإبرازه محسوسًا مأنوسًا، مع استمالة النفس إليه لكونه مألوفًا، فالاستعارة وظّفت إبراز المعنى وقررته بواسطة الحواس.

إنها حقًا صورة رهيبة مخيفة قد رُسِمت بالكلمات، وكانت في غاية الدقة لاختيار ألفاظها وحسن سَبْكها؛ لأنها أظهرت تفاعل جميع جوارح ذلك الزوج الغاضب المنفعل الحزين؛ ليظهر لنا حاله عندما ربطه بجميع أعضاء جسده.

وهنا نتساءل عندما نقرأ هذا الآية: لماذا جاء التعبير بـــجملة: ﴿وَهو كَظِيم﴾ بعد جملة: ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ أي بعد بيان اسوداد الوجه مع أن السياق يوحي تقديم الانفعال النفسي أولًا ثم الانفعال الظاهري ثانيًا؛ لأن الانفعال الظاهري يأتي نتيجة التأثر في النفس، فيقول في غير النظم الكريم: "إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى ظل كظيمًا ووجهه مسودًا" ؟

لكننا، إذ أمعنا النظر وجدنا أن سبب هذا السواد نتيجة لبركان يغلي في القلب من الغضب، ومن ثم قدم ذكر المُسَبِّب ﴿وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ على ذكر السبب﴿وَهُوَ

كَظِيمٌ﴾؛ ليبين لنا روعة التقديم وإبداعه في النظم القرآني ، فمن يكن هذا حاله وجب أن يكون متصفًا بسواد الوجه والذي يسانده ضلال العقل، وفقدان المنطق السليم ، فسواد الوجه يدل على حماقة عقله لأنه تسرع وبالتالي يأتي بعد هذا التسرع الظلم والتهوّر ، كل ذلك لأنه فقد الحكمة التي يساندها العدل والعقل والسلوك المستقيم؛ لذلك نجد النظم القرآني ربط بين سواد الوجه بالكظم بعد أن قدَّم الأول على ثانيه.

حقًا إنه تعبير رائع، وتصوير جامع، وبيان قاطع لصورة هذا الزوج الجاحد الناكر لنعم الله تعالى، ومن ثم فهو أحمق واستحق أن يُظهر النظم القرآني هذا السواد على وجهه، ويقدمه على ما يدور في نفسه.

والتقديم جاء مناسبًا للغرض المساق إليه؛ كما وافق دلالة الألفاظ على المعاني والذي من خلاله يتم إبراز مظاهر الأحزان الخارجية التي تبدو على الوجه، والذي يُفهم من خلالها أن هناك انفعالات نفسية تدور بداخله في النفس ، والتقديم هنا أفاد الاهتمام .

وإذا أُخِّرَ المقدَّم فقد النص بلاغته؛ لأن هناك من يكتم مشاعره الداخلية ولا يظهرها حتى لا يعلم أحد ما بداخله، وهذا ظهر لنا واضحًا في بيان حزن أم موسى على رضيعها في الفصل الأخير من البحث، فلم يصف المولى -ﷻ- جوارحها الظاهرة بل آثر بيان مظاهر الأحزان الباطنة، وهذا ما سنظهره في موضعه – بمشيئة الله تعالى-.

ومن هنا جاء التعبير بالجملة الإسمية ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ليبرز الأثر الطويل الدائم لهذه الفئة ما دامت تلك الأنثى على قيد الحياة، فليس للحزن فترة انقطاع ثم تجديد، لكنه مستمر دائم، وهذا مدلول التعبير بالجملة الإسمية.

بخلاف ورود الجملة الفعلية في بيان مظاهر الوجه الخارجية عندما قال: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾إذ هي دالة في أصل وضعها على الاستمرار والحدوث؛ لأنها بدأت

بالفعل المضارع لدلالته على حدوث الأمر في المستقبل أي يسود وجهه كلما بُشِّر بالأنثى.

والجملة الإسمية في أصل وضعها تفيد ثبوت شيء لشيء ليس غير،[١] وعلى ذلك فمن المفترض أن جملة: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ لا يفهم منها سوى ثبوت شيء لشيء للمبشِّر من غير نظر إلى حدوث أو استمرار.

ولكن الجملة اكتنفها من القرائن والدلالات ما يخرجها عن أصل وضعها لكي تفيد الدوام والاستمرار، إذ سيقت في معرض الذم، الذي هو قرينة على دلالتها على الدوام والاستمرار، ولهذا قد خرجت تلك الجملة عن أصل وضعها وهو الثبوت، وأفادت الدوام والاستمرار، بأن هذا الزوْج الجاحِد الناكِر لنعم الله تعالى ﴿كَظِيمٌ﴾ دائم مستمر ما دامت تلك الأنثى في كَنفه.

والجملة الإسمية لا تفيد الثبوت بأصل وضعها ولا الدوام والاستمرار بالقرائن إلا إذا كان خبرها مفردًا أو جملة اسمية؛[٢] لذا آثر النظم القرآني ذكر المسند إليه بقوله: ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿كَظِيمٌ﴾ خبر مرفوع والجملة في محل نصب حال من صاحب الوجه المُسْوَد.

والكلام سيق في معرض الذم؛ لذا أفادت الجملة الإسمية معناها بموقعها ووصفها في النظم القرآني؛ ليظهر حالة ذلك الزْوج الجاحد الناكر بأنه لم ينس جنس مولوده، دائم الفكر في كيفية التخلص منها، إذن هو مستمر في أفكاره وغضبه وغير راضٍ بما رُزِق، ومن ثم كانت تلك الآية معجزة ببلاغتها في النظم القرآني.

وفي ذكر المسند والمسند إليه تأكيدًا لحال تلك الفئة من الناس؛ لأن بذكرهما يتم تخصيصهم بفعلتهم، ويضاف إليهم كل من نهج نَهْجِهِم.

---

(١) النحو الكافي أيمن أمين عبد الغني ٢٠٠/١ ، دار التوفيقية للتراث – القاهرة.
(٢) النحو الكافي ١ /٢٠٢.

وهنا تظهر بلاغة النظم القرآني وأسراره البلاغية والتي هي سبب من أسباب إعجازه، كما أظهرت مظاهر الانفعال النفسي لهذه الفئة وهذا سبب من أسباب إعجازه أيضًا، إذ هو قرآن ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. (١)

ونَخْلُصُ مما سبق من خلال ما هُدِينا إليه من تحليل آيتي النحل والزخرف أن الآيتين مكيتين وحددتا هدفين هما :

- **الهدف الأول** :

تأسيس العقيدة الإسلامية في النفوس، وإبطال المعتقدات الوثنية الجاهلية، والأعراف والسلوكيات الاجتماعية، عندما رَسَمَت لنا هاتين الآيتين مظاهر حزن من بُشِّر بالأنثى؛ لأن حكمة الله اقتضت أن تنشأ الحياة بين الزوجين -ذكر وأنثى- دائمًا في جميع المخلوقات على وجه الأرض؛ لذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، (٢) إن مجرد تصور الحياة نامية متطورة لا بد أن تتكامل فيها نواميس الكون ، وهل نكره نِعْمَة مَنَّ بها علينا رب السماء ؟

البنت هبة من الله مثلها مثل الذكر ، ومن يكرهها فقد جحد بنعمه-ﷻ-؛ لأنه لا يملك أن يصور في الرحم أنثى أو ذكر أو يَنْفُخُ فيهما رُوحًا ، ولا يملك أن يجعل من تلك النطفة إنسانًا سويًا فكيف يحزن وهو لا يستطيع أن يَخْلُقُ أو يُصَوِّر؟ يقول تعالى : ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾.(٣)

والمصطفى-ﷺ- رُزِقَ بسيدة نساء العالمين-ﷺ- فكانت خير ابنة له ومن أفضل نعم الله عليه -ﷻ- إذن أين نحن من المصطفى-ﷺ- "ألا نتخذه أسوة وهو من ختم به الله الرسل والأنبياء .

---

(١) سورة فصلت ،آية ٤٢.
(٢) سورة الذاريات، آية ٢٩.
(٣) سورة النحل، آية ١٧.

- **الهدف الثاني**:

جمال النظم المتمثل في قوة اللفظ وإيجاز العبارة وبلاغة المعنى؛ ليناسب تحدي أهل الفصاحة واللسان من كفار قريش والعرب جميعًا، وهذا ما هُدِينَا إليه في الفصل الأول – والله تعالى أعلى وأعلم-.

والآن ننتقل إلى الفصل الثاني لنغوص في مظاهر حزن الآباء على الأبناء من خلال مظاهر حزن سيدنا يعقوب على ابنه يوسف -عليها السلام-وحزن أم موسى- رضي الله عنها- على رضيعها -عليه السلام- ؛ لتكتمل صورة تأثير الأحزان على جوارح الإنسان في القرآن الكريم، والله المستعان.

الفصل الثاني

مظاهر حزن الآباء على الأبناء

"بين الإعجاز البلاغي والنفسي"

- **المبحث الأول** : مظاهر حزن يعقوب على ابنه يوسف -عليه السلام-
  - **المحور الأول** : جمالية الكلمة القرآنية ودلالتها .
  - **المحور الثاني**: نظرات في أحوال الجملة القرآنية "في آية يوسف -عليه السلام-"
- **المبحث الثاني**: مظاهر حزن أم موسى -رضي الله عنها-.
  - **المحور الأول** : استلزام انفعال القلب والفؤاد في حزن أم موسى .
  - **المحور الثاني**: الجملة القرآنية وجمال صياغتها، "في وصف حزن الأبوين".

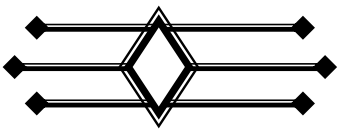

المبحث الأول

مظاهر حزن يعقوب –عليه السلام–

- **المحـــور الأول** : جمالية الكلمة القرآنية ودلالتها .

"في آية يوسف –عليه السلام–"

- **المحور الثاني**: نظرات في أحوال الجملة القرآنية

"في آية يوسف –عليه السلام–"

المحور الأول

جمالية الكلمة القرآنية ودلالتها

من جماليات الكلمة في سورة يوسف ما ورد في الآية رقم (٨٤) عندما وصف النظم القرآني مظاهر حزن يعقوب على ابنه نبي الله يُوسف – عليهما السلام– حينما قال تعالى:

﴿وَتَــوَلَّى عَنْــهُمْ وَقَالَ يَا أَسَــفَى عَلَى يُوسُــفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُــزْنِ فَهُــوَ كَظِيمٌ﴾.(١)

دلَّت تلك الآية الكريمة على مظاهر انفعال أشرف أعضاء جسم الإنسان، ألا وهي "العين"، ولم يكتف بذلك بل ربطها بالجوارح الباطنة المتمثِّلة في كظم الغيظ في النفس، الناتج عن رسوخ الحزن في القلب.

فتلك الأعضاء بينما كانت غريقة في الغمِّ، فاللسان كان مشغولا بقوله: ﴿يَا أَسَــفَى﴾، والعين بالبكاء ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُــزْنِ﴾، والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شُدَّ ولا يمكن خروج الماء منه ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ وهذه مبالغة في وصف ذلك الغمّ .

وتتجلَّى سورة يوسف–عليه السلام– بعدة مواضيع نفسية هامة، تُشكّل دروسًا وعبرًا لمن أراد التعلم والاعتبار؛ فالسورة حافلةٌ بمشاهد تتجلى فيها انفعالات الغَيْرَة، والحزن، والغضب، والخوف، والسرور.

وفي السورة أيضًا مشهد لابتلاء نبي الله يعقوب–عليه السلام– بفقدان ابنه، وفقدان بَصَره، إذ الحزن شيء ملازم للإنسان ولا يوجد إنسان لم يحزن،

(١) سورة يوسف، آية ٨٤.

ويمكنه أن يُخْفِي هذا الحزن وأن يتصنع الفرح، ولكن العين تفضح صاحبها وتبين حزنه، حينما تفرز دموعها، وهذا المشهد هو الذي سوف نسرد الحديث عنه، ومن خلاله سوف نتحدث- بمشيئة الله تعالى- في هذا المحور عن جمالية الكلمة القرآنية ودلالاتها في هذا المشهد .

إذ لدلالة الألفاظ أهمية كبيرة لفهم إعجاز النص القرآني، ومن ثم سوف ننظر إلى كلمات تلك الآية- بمشيئة الله تعالى- من حيث دلالتها اللغوية والتعبيرية التي قيلت في سياق معناها من حيث إعجازها وفصاحتها.

- **الدلالة التعبيرية لقوله**: ﴿ يَا أَسَـفَى ﴾ .

"أسلوب القرآن الكريم يتألق في اختيار ألفاظه ووضعها في الأماكن اللائقة بها، بحيث تكون مستقرة في مكانها مطمئنة في قرارها، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها يستخدم كل حيث يؤدي معناه في دقة فائقة". (١)

ومن تتبعنا لألفاظ النظم القرآني في تلك الآية هُدينا إلى أنه لم يرد قوله تعالى: ﴿يَا أَسَـفَى ﴾ في القرآن الكريم إلا على لسان يعقوب-عليه السلام-، لما لها من دلالات مميزة، وكأنه اختصه به وحده؛ ليعبّر بدقة متناهية عمَّا غشي ذلك الأب المكلوم الذي اتخذ الحزن ديدنًا ومسلكًا له بعد غياب ابنه الحبيب يوسف-عليه السلام-.

ومادة ﴿أَسَـفَى﴾ تدل على الـمُبالغةُ في الحُزْنِ والغَضَبِ، وأَسِفَ أَسَفًا،(٢) فهو أَسِفٌ وأَسْفان وآسِفٌ وأَسُوفٌ وأَسِيفٌ، والجمع أُسَفاء.

ومادة الأسف تدلُّ على شدة الحزن على ما فات، أي أن يعقوب-عليه السلام- قد أَسِفَ على ما فاتَه من منع الأذى عن ابنه، ومن ثم فقد أَسِفَ عليه أَسَفًا أي

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ص ١٢٠ ، دار المعارف ط/٨، ١٩٧٥ القاهرة .
(٢) اللسان ١/ ١٥٠.

غَضِبَ وحزن؛ لأن الأسف كلمة تأتي من عاطفة بعد ارتكاب شيء ما في حق شخص آخر، يتأسف بها الشخص للآخر لكي يسامحه على ما فعل.(١)

فالأسف هنا احتوى على الندم الشديد الذي يصاحب ذلك الحزن، ومن ثم أظهر يعقوب -عليه السلام- أسفه وحزنه على فراق يوسف-عليه السلام- رغم قِدَم العهد به، ولم يُظهر أسفه على فراق بنيامين ابنه مع أنه حديث عهد بفراقه، وربما ندم على تفضيله له على باقي إخوته؛ لأن ما حدث كان سببًا في غيرة الأبناء، ولعل هناك سبب آخر حيث إنه يعلم مكان بنيامين، ويعرف ما حدث له، أما يوسف -عليه السلام- فلا يعلم مكانه ولا يعلم ما حدث له.

وقيل : أَن معنى أَسِفَ على كذا وكذا أَي جَزِعَ على ما فاته، فـ ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾، أَي : يا جَزَعاه.(٢)

ومن ثم آثر النظم القرآني استخدامها في هذا الموضع لدلالته على قوة مشاعر الأبوة في قلبه، وهي مشاعر إنسانية رفيعة، وكلما ازداد الإنسان إيمانًا بالله سبحانه، كانت عاطفة الأبوة أقوى في قلبه وأنصع في نفسه، فالإيمان بالله يكمِّل إنسانية الإنسان، فيفجر فيها ينابيع الخير والإحسان والحنان، والحزن الشديد غير محظور؛ لأنه من أعمال القلب ، ولا سلطان للإنسان على قلبه، وإنما المحظور والمنهي عنه لطم الخدود ، وشق الجيوب والنّياحة كما كان أهل الجاهلية يفعلون.

ومن ثم جاءت اللفظة فصيحة في معناها بليغة في تركيبها، لدلالتها على معناها المراد، ولو استبدلت لما أفادت إعجازها وسط أخواتها.

---

(١) تكوين الخطاب النفسي في النقد العربي القديم ، د/ حسن البنداري ، ص ٤٦، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٢م.

(٢) تفسير القرآن العظيم ، اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، ٢/٢٠٠، مكتبة دار التراث ٢٠٠٠م.

- **الدلالة التعبيرية للفظ** : ﴿ الْحُزْن﴾.

وردت مادة ﴿ الْحُزْن﴾ ومشتقاتها في القرآن الكريم اثنتين وأربعين مرة منها خمس وعشرون في آيات مكية، وسبع عشرة مرة في آيات مدنية، وجاءت دلالتها على الحزن. (١)

الحُزْن لغة: الحُزْنُ والحَزَنُ: يحملان معنى الغلظة والخشونة ، ومنه قيل للأرض الغلظة الصلبة حزن(٢) والخشونة تكون في النفس لما يحصل فيها من الغمِّ، فكأنما يجعلها هذا الغمُّ خشنة مثل الأرض؛ لذا يقال: حَزَن يحزَنُ، وحَزَنتُه وأحزنتُه.

والحزن مظهر من مظاهر الألم، والذي ينتج عنه سلوك انفعالي، وهذا السلوك غالبًا ما يلازم الإنسان الذي تحفُّ به المكاره، إذ يسيطر الحزن على صاحبه، وتستولى عليه الأيام والليالي حتى يعجز عن معالجته ونسيانه ، وسُمّي بذلك لغلظته وتأبيه على السلوان .

الحزن عند علماء النفس : "حالة نفسية تحدث عادةً إذا فقد الإنسان عزيزًا أو شيئًا ذا قيمة، أو حلّت به كارثة، أو فشل في تحقيق أمر هام".(٣)

ومن ثم آثر النظم القرآني مادة "الحزن" دون مادة البكاء؛ لأن البكاء يأتي نتيجة للحزن والألم، فلَمْ يَكُنْ البكاء إلاَّ أَلَمًا وَحُزْنًا، كما لم يكن سَيَلانُ الدُّموعِ إلا مِنَ الألَمِ والحُزْنِ والهم، والغم.

ولنا أن نتساءل : ما الفرق بين الهمّ والحزن والغمّ والكرب والكآبة؟ إن الكلمة في الحقيقة الوضعية إنما هي :

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ١٩٩.
(٢) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني ص ١١٥.
(٣) القرآن وعلم النفس: د. محمد عثمان نجاتي، ص ٩١، دار الشروق، ط/١، ١٩٨٢م.

- إما صوت للنفس الذي هو صوت الموسيقا الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك في تركيب الكلام ونظمه.
- وإما صوت للعقل وهو الصوت المعنوي الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام.
- وإما صوت للحس، ويكون من دقة التصور المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب، ومجاذبة النفس مرة وموادعتها مرة، وهو أبلغهن شأنًا.

لذا فإنّ المتأمّل في مفردات الحزن والهمّ والغمّ ليظنّ للوهلة الأولى بأنّها مترادفات لمعنى واحد، والحقيقة أنّ بين هذه المفردات اختلافًا واضحًا على الرّغم من اشتراكهم في صفةٍ واحدة، حيث إنّها تعبِّر عن مشاعر سلبيّة تصيب الإنسان في مرحلةٍ من مراحل الحياة، ولكن ما الفرق بين تلك المفردات؟ ومتى يشعر الإنسان بها؟

- " الهمّ" هو المشاعر التي يشعر بها الإنسان بسبب انشغاله بالتّفكير في أمرٍ مستقبليّ، (١) أمّا "الحزن" يكون على أمرٍ مضى وانتهى، وقد استعاذ النبيّ -ﷺ- في الحديث الشّريف من عدّة أمورٍ من بينها الهمّ والحَزَن، وهذا يدلّ دلالةً واضحة على الفارق بينهما.

- "الغمّ": فهو شعورٌ ينتاب الإنسانَ حينما يواجه أمورًا تقلقه، حيث يسيطر عليه الغمّ بسبب الهزيمة أو الانكسار، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾، (٢) فـــ" الغمّ" إذًا يختلف عن الحزن والهمّ في كونه يحدث بناءً على أمرٍ حاضر.

(١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ، ص ٥٤٥.
(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

- "الكرب" تكاثف الغم مع ضيق الصدر،[١] أما الحزن فهو تكاثف الغم وغلظته، مأخوذ من الأرض الحزن، وهو الغليظ الصلب.

- الكآبة: تتمثل في أثر الحزن الظاهر على الوجه، ومن ثم يقال عليه كآبة، ولا يقال حزن أو كرب؛ لأن الحزن لا يرى ولكن دلالته على الوجه وتلك الدلالات تسمى الكآبة.

ومما سبق يتبين أن الحزن ورد في القرآن الكريم بدلالاته المتعددة حسب مطابقة حال المخاطِب والمخاطَب، وكل دلالة تعبِّر عن مظهر من مظاهر الحزن في القرآن الكريم، وهو مجال يتسع الحديث فيه؛ لارتباطه بالنفس البشرية وما يدور في خلجاتها.

- **الدلالة التعبيرية في قوله**: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

الكظم في اللغة: الردّ والحبس[٢] يقول الأصفهاني:" احتباس النَّفس، ويُعبِّر به عن السكون، كقولهم: فلان لا يتنفس، إذا وُصِفَ بالمبالغة في السكوت، والمعنى: "مملوء من الغيظ على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم"، [٣] في حين نجد أن جمهور المفسرين يفسرونها بممتلئ القلب من الحزن الشديد الذي لا يظهره للناس.[٤]

(١) معاني القرآن، أبو جعفر النحاس ، تحقيق محمد على الصابوني ، ص٢٠٠، ط/١، ١٩٨٨م إحياء التراث الإسلامي.
(٢) القاموس المحيط الفيروزآبادي ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث ،ص ١٤٩٠، مؤسسة الرسالة، ط/٢، ١٩٨٧م.
(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرازق غالب المهدي ٨٩/٤، ط/١، ١٩٩٥م، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان .
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: عبد المحسن التركي٤٦٠٩/٦، ط/١، ٢٠٠١م، دار هجر، الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ٩/ ٢٤٩، ط/١ ، ٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة .

و﴿كَظِيمٌ﴾: على وزن فَعيل، وقيل:[١] فعيل بمعنى مفعول، كما جاء في يونس-عليه السلام- ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٢] ويجوز أن يكون على وزن فاعل أي كاظم، كقوله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.[٣]

وقوله: ﴿فَهُــوَ كَظِيمٌ﴾ أي: مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له في قلبه لا يظهره، أي: "سكت ليكظم حزنه ويردده في جوفه، بحيث إنه بلغ به الحزن حتى كاد لا يتكلم". [٤]

و﴿كَظِيمٌ﴾ صيغة مبالغة تدل على أنه-عليه السلام- لم يشكِ إلى مخلوق ، وإنما كان يكتم حزنه في نفسه ويُبقى همَّه في صدره حتى بلغ الحزن مداه.

و"الفاء" في قوله: ﴿فَهُــوَ كَظِيمٌ﴾ فضلا جديدًا في تحديد معنى اللفظ﴿ كَظِيمٌ ﴾؛ " لأنه صيغة مبالغة، وليس بمعنى مكظوم؛ لأن صيغة المبالغة هنا تتواءم مع الحزن الشديد الذي حلَّ بيعقوب-عليه السلام- بسبب ابيضاض عيناه، وللـــــــ" الفاء" دور في ذلك". [٥]

ومما سبق يتضح لنا أن مادة ﴿ كَظِيمٌ ﴾ تدور حول المنع من الظهور، "ويلزمه الكرْب ؛ لأنه من شأن الممنوع مما قد امتلأ منه، ويلزمه الامتلاء؛ لأن ما دونه ليس فيه قوة الإظهار".[٦]

ومن دلالة مادة ﴿كَظِيمٌ﴾ نفهم منها الحزن الشديد الدفين الذي ملأ قلب يعقوب-عليه السلام- وحَبَسه في صدره، كما أنها تدل على عدم جزعه، إذ إنه لم يظهر

---

(١) نظم الدرر البقاعي ٤/٨٩.
(٢) سورة القلم ، آية ٤٨.
(٣) سورة آل عمران، آية ١٣٨.
(٤) تفسير الطبري ٩/ ١٨، ٢٠٠.
(٥) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، محمد حسن باجودة، ص ٣٠٤، ٣٠٥، دار الكتب الحديثة ، ط/١٩٨٣م.
(٦) نظم الدرر البيقاعي ٤/٨٩.

الشكوى لأحد من الخلق بدليل قوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. (١)

وهذا إن دلَّ إنما يدل على عبادته الخالصة لله تعالى، والطمع في رحمته؛ لأنه لما عَظُمت مصيبته وقَوِيَت مِحنته صبر وتجرع الغصَّة بلا شكوى.

كما أن مظاهر الحزن بدلالة ألفاظها كانت بمثابة آية لأبنائه، وهو نوع من أنواع تربية الأبناء يجب الالتزام به لمعالجة السلوكيات والأعراف الاجتماعية، إذ لو لم تظهر مظاهر الحزن على أعضاء جسم أبيهم لغياب يوسف-عليه السلام- وأخيه؛ لظن الأُخوة أنهم قد نالوا بُغيتهم، وخلا لهم وجه أبيهم، بتنفيذ رغبتهم، ليرسخ في نفوسهم الاعتقاد في صحة ما ذهبوا إليه من قبل.

ومن ثم كانت تلك المظاهر هي السبب الرئيس الذي جعل أبناءه يتفكرون في الأمر جيدًا، ويتأكدون من خطئهم، وكأن مظاهر هذا الحزن، والذي عبَّرت عنه الجوارح أتم تعبير أيقظ ما كان نائمًا من أحاسيسهم، وكأن هذا الحزن الذي كانوا يلومون والدهم عليه أصبح هو القوة المحركة التي جعلتهم يسعون إلى تصحيح أوضاعهم بتركهم للأحقاد التي بسببها فقدت الأخوة.

- وهناك لفتة تأملية دقيقة تحتملها لفظة ﴿كَظِيمٌ﴾.

لفظ ــ﴿كَظِيمٌ﴾ التي وردت في شأن يعقوب -عليه السلام- تدلّ على أن الحزن تمكَّن منه وأخذ بناصيته ، حيث استولى على جميع جوارحه، فكأن جوارحه كلها اشتركت في هذا المصاب وحزنت ، فكأن ابيضاض العين مؤشر على امتلاء الجوارح وتشبعها بالحزن ، فليس هناك موضع لمحبة شخص آخر ، وهكذا رد على أبنائه الذين ظنوا أن الجو أصبح ملائمًا لهم بعد كيدهم ليوسف، وبذلك

(١) سورة يوسف الآيات ٨٤: ٨٦.

انطفأت فرحتهم، ورُدَّ كيدهم في نحرهم فلم يصلوا إلى مبتغاهم بخلاصهم من يوسف.

وهذه لفتة دقيقة تحتملها لفظة ﴿كَظِيمٌ﴾ التي تدلّ على إحكام الصياغة واتساقها مع سياق الكلام، وصده الله تعالى الذي أحكم كتابه- والله أعلم بمراده-.

المحور الثاني

نظرات في أحوال الجملة القرآنية في آية يوسف -عليه السلام-

عجائب سورة يوسف -عليه السلام- لا تنتهي ودروسها لا تنقضي، وقفتُ كثيرًا متأملة في قوله -جل جلاله-: ﴿ وَتَـوَلَّى عَنْـهُمْ وَقَالَ يَا أَسَـفَى عَلَى يُوسُـفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُـزْنِ فَهُـوَ كَظِيمٌ، قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ{٨٥} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .(١)

تأملتُ في مظاهر حزن أَبٍ فقد ابنه، وفكرت في هذا المشهد العصيب، والذي نراه كثيرًا متكررًا في حياتنا!!، فوجدت عظمة تصوير النظم القرآني للحياة عامة وللنفس البشرية خاصة، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها عندما يسبح في أغوار آلامها، ويصور مظاهر الحزن الشديد الذي يشعـر به الآبـاء إذا ما فقدوا أحد أبنائهم أو لحق بهم ضررٌ أو أصابهم سوء.

هذا المشهد الرهيب عبَّر عنه النظم القرآني بأسلوب خبري فقال: ﴿وَتَـوَلَّى عَنْـهُمْ﴾ ؛ لتقرير المعنى وتوضيحه؛ ولبيان الأثر النفسي والجسدي الناتج عن المشاعر والأحاسيس؛ لما له من تأثير في العقل، من خلال عرضه لحقائق إنسانية في ثوبها الاجتماعي؛ والذي يُظْهِر تفرُّد القصة القرآنية عمَّا سواها.

كل هذه المعاني جاءت من خلال ترابط أجزاء الجملة الخبرية وتماسك كلماتها وجملها، مع جزالة وعذوبة ألفاظها؛ لتصبح تلك الصورة كأنها سبيكة واحدة تأخذ الأبصار، وتَخْطِفُ القلوب، وتَأْسِرُ ألباب أهل البيان.

---

(١) سورة يوسف ، الآيات ٨٤: ٨٦.

لذا يُعَدّ هذا المشهد من أبرز مشاهد انفعال الحزن في القرآن الكريم على الإطلاق؛ لشرف معانيه المتجسدة، وعبقرية غايته، ورسائله التي نتج عنها الوصف الدقيق لمظاهر حزن هذا الأب، والذي من خلاله فقد بصره فعُمِي.

ولكي يكتمل وصف "العمى"، جَمَعَ النظم القرآني مع الحزن الكمد، والهمّ، والبكاء، والبث، والشكوى إلى الله تعالى، حيث كان لهذا الجمع خصيصة أختص بها يعقوب دون سواه ، وهذا دليل على أنه لم يحزن أحد مثل حزنه -عليه السلام-على ابنه، كل ذلك جاء من خلال التنوع في أحوال الجملة من حيث الخبرية والإنشائية المتمثل في قوله: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾.

ومن الإعجاز البلاغي أن الآية هنا تَعْرِضُ صورتين متناقضتين في مشهد واحد مُثير، يجمع فيه بين الأسلوب الخبري، والأسلوب الإنشائي الطلبي؛ حيث جمع بين الحوار المتأزم المتمثل في قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾، والوصف الدقيق المتمثل في قوله: ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾؛ لبيان نفسية يعقوب-عليه السلام- وقد أعرض عن أولاده إعراض عتاب، وقلبه مفجوعٌ مكلومٌ من الحزن عليهم؛ لأنه لم يجد مُعينًا له من أولاده في بلواه، ومن ثم تولى عنهم جميعًا.

وكأن هذا المشهد جيء به ليكون مقدمة لبيان مظاهر حزن يعقوب على ابنه يوسف- عليهما السلام-، حتى يهيئ القارئ ويجعله يندمج مع القصة بجميع أحداثها، لتحريك مشاعره وأحاسيسه، وفي نفس الوقت يبين ما اعترى يعقوب من أحزان على فِراق يوسف-عليهما السلام- بجمل بها شحنات نفسية.

لذا عبَّر عن ذلك المشهد بطريق العطف فآثر الـــ "واو"؛[1] ليصف مشهد الحركة الجسدية بعد حديثه مع أبنائه في الآية السابقة؛ لعطف جملة: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ على جملة قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾؛[2] من خلال انتقال

(١) إعراب القرآن الكريم ٢/ ١٠٩٦.
(٢) سورة يوسف ، آية ٨٣.

حكاية حال يعقوب-عليه السلام- في انفراده ومناجاته لنفسه بالتولي عنهم؛ ليفيد أن التولي حاصل عَقِب المحاورة ، والعطف جاء لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى؛ مع وجود جهة جامعة متمثلة في اتحاد المسند إليه، ومتعلق الفعل – المفعول به- ؛ لأنه يتحدث مع أبنائه.

ومن هنا عطف أحداث ومراحل وسبب هذا الحوار على بعضه، بحرف العطف "الواو"؛ لأنها "عاطفة جامعة ومُرَتِّبَة"،[1] وهذا كلام مرتب ففقده لابنه يوسف كان قبل فقد ابنه الثاني بنيامين بدلالة قوله: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾.

لذا أردف "واو" العطف بالفعل ﴿تَوَلَّى﴾ ليدل على أنه أعرض عن أبنائه، وهذا الإعراض دواء وعلاج لهذا الداء، وهو عظيم الفائدة في أن يتنحَّى الإنسان عمن يسبب له ضيقًا.

ومن ثم آثر الجملة الفعلية الماضية ليبين حركة وهيئة يعقوب -عليه السلام- بأنه أعرض عنهم وانصرف كراهة لما جاءوا به، إذ الفعل ﴿ تَوَلَّى ﴾ يفيد الحركة المتمثلة في انصراف الوجه، كما يفيد أيضًا إساءة الظن بأبنائه ، حيث إنه لم يُصدِّق قولهم، ومن ثم تولى عنهم وهو في حالة غضب شديد، تاركًا أقوالهم وتأكيداتهم.

فُهِمَ ذلك من الدلالات التعبيرية لمادة ﴿ تَوَلَّى ﴾ حيث إنها أفادت الهجر والاعتزال والاختلاء بالنفس، وهذا الاختلاء كان مصحوبًا بالهم والغم، والحزن والأسي؛ لأنه ببشريته تذكر ما حدث لابنه يوسف-عليه السلام- .

ومن هنا أطلق النظم الكريم لفظ "التولي" وأراد به "الإعراض" على سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية، حيث أطلق السبب وأراد المسبب.

---

(١) معاني الحروف ، أبي الحسن على بن عيسى الرُّماني، تحقيق: عرفات سليم العشا حسونة الدمشقي ص٣٦، المكتبة العصري ، صيدا بيروت، ٢٠١٤م.

كما آثر النظم القرآني أن يسمي "الإعراض" "تولي" ؛ ليبين أنه كلما حضر أولاد يعقوب إليه أخبروه بخبرٍ حزين، وكأن هذا طبع فيهم، ومن ثم أعرض عنهم؛ لأن الإعراض سبب أصيل في التولي، وأن التولي مسبب عن ذلك، ولا يمكن عرض المعنى هنا إلا عن طريق المجاز المرسل، ولا يستطيع طريق آخر يؤدي هذا المعنى الذي أداه طريق المجاز.

وفي ذلك إبراز لقوة تأثير المُسَبِّبْ على السَبَبْ حتى لكأن السبب صار عين المسبب؛ لذا عبَّر عن الإعراض والنفور بالتولِّي.

ومن ثم حذف المسند إليه وتقديره : يعقوب-عليه السلام- ؛ لتنبه السامع عند القرينة أو مقدار تنبهّه له، كقولك: (خاتم النبيين) أي: محمد -ﷺ-.

كما آثر الجار والمجرور في قوله: ﴿عَنْـــهُمْ﴾ المتعلق بالفعل﴿تَـــوَلَّى﴾؛ لإظهارِ التجاوُزِ والبعدِ[1] أي بُعد يعقوب- عليه السلام- عن أبنائه.

- **مراحل حزن يعقوب** -عليه السلام-.

قد كشف مشهد تولِّي يعقوب -عليه السلام- عن أبنائه، تطور انفعال مظاهر الحزن عند يعقوب حتى وصل إلى ثلاث مراحل بأساليب مختلفة:

- **المرحلة الأولى**: " **الهم والغضب**"

مرحلة الهمّ المكبوت في داخل النفس، هي مظهر من مظاهر الحزن يمكننا أن نطلق عليه مقدمة للحزن بل جزءٌ منه ، فيعقوب- عليه السلام- ما إن أخبره أولاده بما جرى لأخيهم مع عزيز مصر من احتجازه بسبب سرقة المكيال ، حتى قال نفس الكلمات التي قالها حينما جاؤوا بخبر أكل الذئب لأخيهم يوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾،[2] وهذه الكلمات تخفي في داخلها الشك

(١) انظر معاني الحروف للرماني ص ٣٦.
(٢) سورة يوسف ، آية ١٨.

من كلام أولاده والهم والغم المكبوت في القلب، ومن ثم أعرض عنهم وقد ضاق صدره بما قالوه .

- **المرحلة الثانية** : " **الحزن الشديد**"

فهذا هو الأب المفجوع ، والوالد المكلوم ، فقدَ ابنه الحبيب الذي كانت له خاصية ومكانة بقلب والده ؛ لتميزه عن إخوته؛ لكونه نبيًا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾،(١) ثم يفقد هذا الأب ابنًا آخر، إبتلاء ومِحنةٌ وكُربة عظيمة اجتمعتْ على يعقوب -عليه السلام-، فلما فقد ابنيه تجدد في قلبه حُزنه الأول فأعاد ذِكرَ يوسف، وخرجتْ شكواه وأنـــّاتُ صدره فتحركت شفتاه ونطقَ لسانـــُه:

﴿ وَقَالَ يَا أَسَـــفَى عَلَى يُوسُـــفَ﴾

فلمّا اشتدَّ عليه الأمرُ خرجتْ كلماتٌ كانت بين أضلاعِ صدره الذي يواري قلبًا هزّه الشوقُ إلى لقاء ابنه، قلبٌ طالما تحرّق والتاع كمدًا على فراق ابنه.

وهنا عطف جملة ﴿وَقَالَ﴾ على سابقتها للتوسط بين الكمالين مع عدم وجود مانع للعطف؛ ليظهر من خلال العطف مرحلة الندم المصحوب بالحزن الشديد وقلة الحيلة.

لذا جاء باللفظ ﴿قَالَ﴾ فالْقَالُ وَالْقِيلُ: مَا يَقُولُهُ النَّاسُ عَنْ بَعْضِهِمْ، قَالَ أي: تكلّم أو تَلَفَّظَ، أو خَاطَبَ،(٢) ففي القول وصْفٌ لكل لفظ نطق به اللسان سواءً كان تامًا أم ناقصًا"،(٣) أي: لسان يعقوب -عليه السلام-.

---

(١) سورة يوسف، آية ٦.
(٢) المعجم الوسيط مادة: " قال" ص ٥٢٠.
(٣) القاموس المحيط مادة: " قول " ص ١٣٥٨.

ولما كان الوصف الذي ذكره النظم القرآني من المخاطر مالا يسرُّ سامعه، آثر لفظ "قال" ولم يقل: "يقول"؛ لأن القالُ تقال في الشر، بخلاف القوْل: فإنه يقال في الخير،(١) وجاء القول هنا قبل التحدث عمَّا يدور في نفس يعقوب-عليه السلام- للتهيُّؤ للأفعال والاستعداد لها.

ومن ثم ثنى في وصف مظاهر الحزن بالجملة الإنشائية الطلبية المعبَّر عنها بأسلوب النداء بقوله: ﴿ يَا أَسَـفَى ﴾.

ونداء الأسف هنا ليس في معناه الحقيقي، حيث إنه نزَّل الأسف منزلة من يعقل، فكأنه قال له: احضر هنا فهذا أوان حضورك،(٢) ومن ثم خرج النداء من معناه الحقيقي وأريد به الندم وقلة الحيلة الناتجة عن الحزن الشديد على فراق يوسف-عليه السلام-.

وحزن يعقوب -عليه السلام- قريب منه، ملازم لمشاعره وأحاسيسه، ولكننا نلاحظ أنه نادى ذلك الحزن بأداة النداء البعيد، وكأن حزنه بعيدًا عنه، ولم لا؟ وهو داخل أعماقه، فيكون بهذا النداء جعل بينه وبين أعماقه مسافة زمانية، ومن ثم فهو يصرخ ويناديه ليقرب منه.

وألمح في المجيء بحرف النداء الـــــ "يا" تعبيرًا عن حالة نفسية ألمَّت بهذا الأب المفجوع على ابنه، وهذا دلالة على مدى البعد النفسي الذي يحس به هذا الأب المكلوم على فلذة كبده، وكأن هذا الأسف بعيدًا عنه يناديه؛ فجعله بمنزلة الساهي أو الغافلٌ أو النائمٌ.

ومن هنا ناداه بأداة البعد؛ لأن فيه أوجهًا من التأكيد؛ ليوقظه من غفلته، إذ أفرغ جهده في تقويم أبنائه، فلم يزدهم ذلك إلا تماديًا في ظلمهم، فأطبق الهمُّ على فؤاده، وكأنما شَعَر بتخلِّي الأسف عن نُصْرته، وبُعدِه عن أن يَمُدَّ إليه يد

(١) القاموس المحيط ص ١٣٥٨.
(٢) التحرير والتنوير ٧/ ٤٢.

المساعدة، فأتى بحرف النداء، كأنما يريد أن يرفع صوته زيادةً في استجلاب رضاه.

وتسمية المخاطب " الأسف" بعد حرف النداء يفيد كأنه يسمع النداء ثم يقبل إليه ، وهذا فيه مبالغة في التنبيه على هذا الأسف ، أي تنبيهًا على أن هذا الأسف الذي ينادي عليه من شأنه أن يحمله على الاستجابة لما طُلب منه ، ومن ثم آثر النظم القرآني حرف النداء "يا" ؛ لأنها (أكثر حروف النداء استعمالا، بل لم يستعمل القرآن الكريم غيرها، وإذا وجدت في الكلام ، واستُعملت في العبير كان لها غرضٌ وحكمة، ودلَّت على معنى).(١)

وهنا تتجلى صورة حسية تتمثل في أنه صوَّر الأسف وكأنه إنسان يسعف مناديه وينقذه؛ لأن النداء كان لاهتمام وإيقاظ غوافي المشاعر كي تعي ما يلاقيه الأب من حزن على ابنه.

ومن ثم جاء بالاستعارة المكنية حيث شبه الأسى بالإنسان العاقل الغائب الذي احتيج إليه، بجامع الاحتياج في كل، ثم حذف المشبه به ، واكتفى بشيء من لوازمه وهو حرف النداء والذي كان قرينة لتلك الاستعارة المكنية، على سبيل الاستعارة التخييلية.

حيث تخيل يعقوب-عليه السلام- أن الأسف هذا إنسان يمكن أن يناديه ، فيحضر إليه، ثم يقوم بعملية السلوى وتخفيف الألآم التي يحس بها بعد بث شكواه له، من خلال تصوير الصورة المعقولة في صورة حسية؛ لتقريب المعنى وتوضيحه، ومن ثم

(١) من أسرار التعبير في القرآن الكريم " الحروف" د/ عبد الفتاح لاشين، ص ١٥٨، دار الفكر العربي ط/١، ٢٠١٤م.

نودي على سبيل الاستعارة المكنية ، "فإنه من الأقرب إلى السياق أن يقرن بهذا الفهم دلالة النداء بأنه مجاز".(١)

أو تجرى تلك الصورة عن طريق الاستعارة التبعية على أساس تشبيه نداء غير العاقل بنداء العاقل، وهنا تكون الاستعارة في حرف النداء كقوله : ﴿ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ﴾.(٢)

ولا يخفى أن الوجه الأول-الاستعارة المكنية- أقوى في كشف أسرار هذا النداء الذي يقطر حزنا ومرارة، وحرقة ولهفة.

هذا النداء ومثيله في اللغة العربية مثل يا حسرَتي، ويا ويلَتي، لا يقصد بها حقيقة النداء، كما يشير الإمام عبد القاهر الجرجاني إلي ذلك في قوله: (المستعار بالحقيقة يكون في معنى "اللفظ" ، واللفظ تَبَعٌ... ثم إن من الاستعارة" قبيلاً لا يصحُّ أن يكون المستعار فيه "اللفظ " البتَّة ، ولا يصح أن تقع الاستعارة فيه إلا على المعنى).(٣)

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة، وتظهر دلالتها في بيان مظاهر حزن هذا النبي ، إذ فيها إشارة إلى أن هذا الحزن واقع متمكن في قلبه عالق به، ولكن يعقوب -عليه السلام-يملك نفسه، ويسيطر على غضبه وحزنه ؛ لأنه يملك قلب نبي ، وذو علم من الله ، لا يذهب به الحزن كل مذهب ، وإنما يملك ناصية غضبه ، ويحزن حين يحزن ، ويستدعيه وقتما يريد لتمكنه في هذا المقام الرفيع ، وهو مقام الشكوى والأنين.

---

(١) انظر حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسير البَيضَاوي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسير البَيضَاوي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، ١٦٤/٥، دار صادر – بيروت ٢٠٠٠م.
(٢) سورة يوسف ، آية ١٩، انظر روح المعاني ٥٢٠٣/١٣، والتحرير والتنوير ٢٤١/١٢.
(٣) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ، ص ٤٦٠.

ولا غرو في أن حزنه لا يذهب بمرور الأيام، فالصدمة وقوتها تُفقد الإنسان السيطرة على مشاعره وأحاسيسه ولو كان صلبًا في مشاعره؛ لأن مشاعر الحزن والشعور بالفقد مشاعر قوية عميقة لا نهاية ولا وصف لها، ولكنه تغلَّب عليها بقوة إيمانه .

وقد جاءت هذه المعاني كلها، ودلت عليها الاستعارة المكنية ، وهنا يتبين أثر هذه الاستعارة في إبراز مظاهر الأحزان على جوارح الإنسان، وقد بينت حال يعقوب- عليه السلام- والواقع الذي يعيش فيه والجزاء والمصير الذي ينتظره.

ولزيادة توكيد المعنى عَرَّف "الأسف" عندما أضافه إلى ضمير نفسه بقوله : ﴿يَا أَسَفَى ﴾ ولكن حذف الظاهر- يا أسف يعقوب -عليه السلام- ووضع الضمير فقال: ﴿يَا أَسَفَى﴾ ؛ لكي يقرر ما بعد الضمير في نفس السامع لتشوقه إليه ؛ ولأن هذا الأسف جزئي مختص به من بين جزئيات جنس الأسف. (١)

و"الألف" بدل من ياء الإضافة – ضمير المتكلم – أي يا حزني؛ لأنها جاءت في سياق النداء، والتعريف هنا أفاد تمكين وتقرير المعنى في نفس المتكلم.

وآثر النظم القرآني حسرة وحزن يعقوب على يوسف-عليهما السلام- دون أخيه بنيامين في قوله: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ؛ لأن هذا التحسر يتعلق بقضية يوسف-عليه السلام-؛ لأنه لا يعلم مكانه، أما بنيامين فهو يعلم قصته ويعلم مكانه.

ومن ثم آثر استخدام حرف الجر﴿عَلَى﴾ التي تفيد الاستعلاء، وكأن هذا الأسف والحزن الشديد لا يعلو إلا على يوسف-عليه السلام- فقط دون غيره، فالحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس فيكون الألم أوقع.

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٤٢.

وآثر تخصيص يوسف-عليه السلام- بالأسف؛ لكونه نبيًا، كما أبلغه الله في رؤيا يوسف-عليه السلام-، وقيل معناه: "يا رب ارحم أسفي على يوسف"؛[٢] لذا اعتزل الناس ليندب وحده على من لن ينساه أبدًا، يندبه بهذه الصرخة العالية المفجعة.

هذه المرحلة من الحزن فيها تجانس جميل بين كلمتي ﴿أَسَفَى﴾

و﴿يُوسُفَ﴾، والمجانسة مفاعلة منه؛ لأن إحدى الكلمتين إذا شابهت الأخرى وقع بينهما مفاعلة الجنسية، والجناس هنا مطلق؛ لأن﴿ أَسَفَى﴾ و﴿يُوسُفَ﴾، لا يرجعان إلى أصل واحد، وهو ما يشبه اشتقاق ولي باشتقاق.[١]

وكأن النص يشير إلى أن الحزن الشديد والكبير والعظيم والفاجعة الكبرى بفقدان يوسف-عليه السلام- ، وهذا الجناس يأتي في هذه الصورة العفوية من غير تكلف، مما يزيد الكلام الجليل بهجة، [٢] ويضيف إلى جمال العبارة المعنوي جمالا تطرب له الآذان وترتاح له النفس. [٣]

- المرحلة الثالثة : ذهاب البصر.

المعبَّر عنها بقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، فمعَ أن يعقوب -عليه السلام- نبيٌ ويعلمُ أمور قد لا يعلمها بني البشر مما يوحي اللهُ له بها إلا أنه خَلْقٌ من البَشَر، و يعتريه ما يعتري البَشر، يحزن ويضيق ويكرب ويغتم.

ومن ثم عطف على ما سبق ثلاث جمل بـ" الواو" بعد عطفها على بعضها فعطف جملة: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ﴾ على سابقتها وجملة : ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى

(٢) فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل ، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل ٢/ ٤٧٥، دار الفكر.
(١) وذلك بأن يوجد في كل من اللفظين جميع الحروف أو أكثر، مع الاتلاف في المعنى.
(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ٣/ ٤٢٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
(٣) الكشاف للزمخشري ٣٣٨/٢.

يُوسُــفَ﴾ عليها، وجملة : ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ على سابقتها للتوسط بين الكمالين ولوجود الجهة الجامعة بينهما، وعدم وجود مانع من العطف.

وهذه المعطوفات دالة على أن القرآن الكريم لم يصف مثل هذا الحزن إلا على حزن يعقوب على ابنه يوسف- عليهما السلام-، وهذا دليل على أنه لم يحدث حزنًا لأحد مثل حزن يعقوب على ابنه- عليهما السلام-، ولكننا نرى مثل هذا الحزن متكررًا في حياتنا ، ولكن لكون يعقوب -عليه السلام- نبيًا فله خصيصة أخرى في حزنه تفوق حزن البشر جميعًا.

لذا يُعمّق النظم القرآني صورة النفس الحزينة عند ذلك النبي من خلال رسم الملامح الخارجية الظاهرة في عينه-عليه السلام-، إذ تبيضّ من شدة الحزن الذي صحبه كثرة البكاء على فراق ابنه.

ولكن لماذا آثر النظم القرآني وصف مظاهر الحزن في العين الجارحة ؟ ثم لماذا آثر اللون الأبيض ولازمه لتلك العين؟ ولماذا أيضًا لم يقل: "اسودت عيناه أو عميت عيناه من الحزن"، بل قال:- ﷻ- ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾؟

آثر النظم القرآني العين الجارحة لأنها الوسيلة الوحيدة الأكثر رقيًا للتواصل البشري؛ لأن ما تراه العين يشكل جزءًا كبيرًا من محتوى العقل، والعين مرآة العقل وهي الملف العقلي للإنسان الذي يخزن فيه ما يريد؛ لذا سخر الله تعالى العينين التي تقوم بدورها الرئيسي وهو النظر عند فقد هذا الولد فقد النظر معه.

ولكن هل فكرت يوما في أهمية تلك العيون وما الذي يمكن أن تقوم بها؟ العين تقوم بمهمة المحرر بالنسبة للعواطف الإنسانية ضمن نظام دقيق، حيث تتحول إلى جهاز إرسال ناقلا كل العواطف؛ لذا تعتبر العين أهم الأعضاء التي وهبها الله للإنسان.

والدموع إحدى وسائل العين التي يعبر بها الحزين عن حزنه، والمتألم عن ألمه والمنكوب عن نكبته، إن الدمع الصادق الذي به حرارة المصاب وملوحة الحزن أول خطوة نحو الصبر والسلوان.

والحزن شيء معنوي يسري إلي القلب، ويحل بالجوارح، فيعبر الناس عنه بوسائل مختـــلفة وطرائق متعددة، للتنفيس عن كرباتهم، ولتخفيف أحزانهم.

ومن ثم كان النظم القرآني دقيقًا في وصف مظاهر حزن سيدنا يعقوب -عليه السلام- وبيان أثر ذلك الحزن على العين الجارحة.

والبكاء ليس مقصورًا على النساء، فهذا نبي الله يعقوب-عليه السلام- يبكي ابنه يوسف، وسيد الأنام -ﷺ- تنهمر دموعه حزنا على ولده إبراهيم ويقول : ﴿ إنَّ العينَ تدمَعُ والقلبَ يحزَنُ، ولا نقولُ إلَّا ما يُرْضِي ربَّنا، وإنَّا بفِرَاقِكَ يا إبراهيمُ لمحزنونَ﴾. (١)

وهكذا يظل الألم يعصر القلوب فيظهر على العين مكنونها، ليُفصح عن أسراره، وفي ذلك تقول الخنساء:(٢)

كأنّ عيني لذكراهُ إذا خَطَرَتْ ∴ فيضٌ يسيلُ علَى الخدّينِ مدرارُ.

ومن الإعجاز البلاغي في الآية الكريمة قوله : ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ والبَياض: لون الأبيضَ، وهو ضد السواد، وأصَابَهُ بَيَاضٌ فِي عَيْنِهِ

أيْ: مَا يَتَخَلَّلُ بُؤْبُؤَ العَيْنِ مِنْ خُيُوطٍ بيضٍ، (٣) والمعنى: انمحق سواد عينه وبُدِّل بياضًا من بكائه.(٤)

---

(١) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسـننه وأيامـه ص ١٣٠٣ ، محمـد بـن إسماعيل البخاري تحقيق / محب الدين الخطيب الناشر: المكتبة السلفية – القـاهرة ط/١، ١٤٠٠هـ.
(٢) ديوان الخنساء تحقيق : د/ إبراهيم عوضين ص ٢٠٩، مطبعة السعادة ١٩٨٥م .
(٣) اللسان ٥٦٧/١.
(٤) تفسير الجلالين جلال الدين المحلى جلال الدين السيوطي، ص ٢٢٤، ط/١، دار القلم بيروت.

وبياض العين في الحقيقة بسبب الحزن الشديد، وقد زاد الحزن بعد فراق ولده الثاني فأصبح حزنًا على حزن، وبكاءً على بكاء حتى أصيبت عيناه بالمرض، ولم يكن ابيضاض عينيه إلا في مدة طويلة ، فكل من التولي والتحسر وابيضاض العينين من أحوال يعقوب -عليه السلام- إلا أنها مختلفة الأزمان.

واللون الأبيض هنا يرتبط بدلالة وجدانية تشير إلى الحزن العالق في النفس؛ لأن الحزن في قلوب البشر فطرة إنسانية، ومسحة ببشرية، جعلها الله في قلوب العباد، يتألمون بالفجائع ويشعرون باللوعة، ويتذوقون مرارة المصاب.

قال ابن عاشور: "وعندي أن ابيضاض العينين كناية عن عدم الإبصار، وأن الحزن هو السبب لعدم الإبصار كما هو الظاهر، فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عصب الإبصار ، على أن البكاء من الحزن أمر جِبِلِّي فلا يستغرب صدوره من نبي".(١)

ومن ثم فبياض العين كناية عن صفة العمى وعدم الإبصار؛ لأن بياض العين كان مُسَبِّبًا عن حسرته وحزنه على فقدان ابنه يوسف -عليه السلام- من آثار البكاء، فهو يتنفس بتلك الدموع، يتنفس من رئتيه بالآهات والحسرات؛ لأن الدموع إذا كثرت محقت سواد العين، وقلبته إلى بياض كَدِر، ومن ثم أقيم سبب السبب مقامه لظهوره.

وتكمن بلاغة الكناية في هذه الآية، وفي هذا السياق أن فيها دلالة على عظم الحدث الذي نتج عن الحزن، فلما كان الحزن عظيم نتج عنه ذلك المرض ، وأي حزن أشد من الحزن على فقد الأبناء، ويدل على هذا المعنى ويؤكده ، تثنية لفظ عيناه ، أي أن المرض ألحق بهما معًا .

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٦/٤٣.

وقد جاءت هذه الكناية مشيرة إلى هذه المعاني كلها، ودالة عليها ، ومن هنا تتجلى بلاغة الكناية وأثرها في هذا المقام من خلال ذكر وصف حالة بياض العين ورجوعها إلى الحزن في قوله ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ .

وهنا ربطت الآية الشريفة مظهر من مظاهر الحزن وحسرته في العين ولنا وقفة هنا لنظهر الحالة النفسية التي مر بها يعقوب -عليه السلام-، والتي تتمثل في العمى النفسي.

الإعجاز النفسي في بياض العين و"العمى النفسي"

القرآن الكريم مليء بالمعجزات النفسية والتي تثبت أن هذا القرآن من عند الله تعالى !! و كل ما يكتشفه علماء النفس من حقائق صحيحة ويقينية إنما تحدَّث عنها القرآن قبل أربعة عشر قرنًا.

والهدف من تناول تلك المعجزة ليس مجرد أن نقول إن القرآن سبق علماء النفس، نعم هذا هدف عظيم، ولكن هناك هدف أعظم ألا وهو أن نتفكر ونتدبَّر في هذه الآية لنقوّي إيماننا ونزداد ثقة بالله -عز وجل-.

فحينما عاد الأخوة ليفجعوا والدهم في ابنه الثاني، وأحب أولاده إليه بعد يوسف-عليه السلام-، جددت تلك الصدمة أحزانه القديمة قال تعالى: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

فمع أنهم نقلوا إليه خبر فقد ابنه الثاني" بنيامين" وليس خبر ابنه الأول "يوسف-عليه السلام-"، إلا أنه انتابته رغبة في العمى، وحسب نظريات علم النفس وتعريفهم للعمي النفسي الناتج عن هيستريا تنتاب المريض.

والعمى النفسي هو: "مرض نفسي ينشأ عن حالات نفسية لا شعورية، تظهر على هيئة أعراض واضطرابات بدنية وعقلية ليس لها سبب عضوي".[١]

(١) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ، د/ عبد العزيز القوصي، ص ١٦٨.

ومن ثم فلم يعد هذا الأب المكلوم على فقدان أبنائه قادرًا على الإبصار، ومن ثم فَقَد بصره دون أسباب عضوية واضحة على شبكيّة العين، أو الشلل الذي يصيب البدن، ولكن سيطر الحزن على إرادته، فأصبح لا يريد أن يرى الدنيا وقد خلت من ولديه الحبيبين، وذلك هو العمى النفسي.

لذا آثر النظم القرآني ألفاظًا ذات دلالات متعددة للتعبير عن هذا المشهد المؤلم في النفس فقال: ﴿ابْيَضَّتْ﴾ وقال: ﴿الحُــزْنِ﴾ من خلال قوله تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الحُــزْنِ﴾.

وبياض العينين يقتضي ضعفها الشديد، ومقتضى الإدراك الضعيف يستلزم وجود أصل البصر، غايته لم يكن البصر على ما كان عليه من قبل، وضَعْف البصر الشديد يطلق عليه العمى عرفًا، إذ لا يدرك صاحبه الرؤيا إلا إدراكًا ضعيفًا، يكاد يكون منعدمًا.

لذا لم يقل النظم القرآني :" فعميت عيناه من الحزن فهو كظــيم" إنمــا قــال: فابيضت عيناه لضعفها من الحزن، والفرق بين عمى العــين وبياضــها واضــح وظاهر إذ لا يستلزم بياض العين عماها.

والأمراض النفسية أو آليات الدفاع النفسي تعتمد بصورة عامّة على إضعاف المهمّة الميكانيكية للجسد، عن طريق العقل، كنوع من الحيل الدفاعية، والتي يلجأ إليها العقل في حالات الخطر، ولكن النفس التي تقوم بهذهِ الألاعيب، غالبًا ما تقعُ في اللا شعور والغرائز الفطرية ، من خلال نظرية "السبب اللاعضوي واللاشبكي".(١)

وهنا لازم الجارحة ضَعفِها في النظر، وقلة فاعليتها في أداء وظيفتها، هذا مما لا شك فيه؛ لأنه قال-ﷻ- حكاية عن يوسف-عليه السلام- في وصف حالة أبيه:

(١) سيكولوجية الدافعية والانفعالات، محمد محمود بني يونس،ص٢٢٧.

﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾؛[١] لإمكانية حمل معنى (ارتداده بصيرًا) على جلاء البصر وعودته قويًا بعد زوال العرض النفسي ، لا حمله على العودة بعد ذهاب أصل الرؤية الذي ينتج عن العمى العضوي.

ومن ثم أدرك يوسف -عليه السلام-، وهو الذي أوتي علمًا وحكمة بنص القرآن أن هذا العمى نتيجة لصدمة نفسية، وأنه يمكن أن يشفى بصدمة مضادة؛ لأنه مرتبط بأسبابه، فإذا تخلَّص من هذه الأسباب تم علاجه، وبناء عليه فالعمى النفسي سينتهي فورًا بزوال السبب.

ومن ثم عبَّر عن ذلك المعنى بقوله: ﴿بَصِيرًا﴾ ولم يقل: مبصرًا؟ لأن الأسماء لا تُلْقَى إلاَّ على مسميات، بحيث إذا ما ذكر الاسم تواردت صفاتُه وخصائصه تلقائيًّا.

إذ لفظ ﴿بَصِيرًا﴾ يفهم مدلوله من دلالاته المتعددة : فهو صفة مشبَّهة لدلالته على الثبوت من بصُرَ فهو مُبصِر، أي يرى بعينه ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، [٢] كما أنه توحي بمعنى الإيمان كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾،[٣] كما أنه يطلق على الأعمى تفاؤلاً بقوّة بصيرته، أي: بصير بالعواقب فيأخذ الاحتياطات متداركًا لما يحدث، ورَجُلٌ بَصيرٌ، أي : ثاقِبُ النَّظَرِ، فبصير إذن فاعل من بَصُرَ.

ناهيك من أن لفظ ﴿بصير﴾ اسم من أسماء الله الحسنى، ومعناه: المبصِر، العالم بخفيَّات الأمور، ومن ذلك شرف استخدام اللفظ ﴿بَصِيرًا﴾ لشرف دلالة مفهومه عليه، إذ لا يقتصر على النظر فحسب بل يدلُّ على بصيرة القلب أيضًا.

---

(١) سورة يوسف، آية ٩٣.
(٢) سورة الإنسان ، آية ٢.
(٣) سورة الرعد، آية ١١.

وقوله :﴿ عَيْنَاهُ﴾

مفردها عينٌ، والعَيْنُ حاسة الرُؤية وهي مُؤنثة وجمعها أعْيُنٌ وعُيُونٌ وأعْيَانٌ والمُثَنَّى: عَيْنَانِ، والعَيْنُ: عضو الإبصار للإنسان وغيره من الحيوان، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم في "إحدى وخمسين موضعًا"،(١) بين الحقيقة والمجاز، حيث يقال لذي العَيْنِ: عَيْنٌ، وللمُرَاعيِ للشيء عَيْنٌ، وفلان في عيني أي: أحفظه وأراعيه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.(٢)

والعين هي التي تكون دائمًا مُعبِّرة عن أحاسيس الإنسان ومشاعره، ولغة العيون مصطلح يستعمل في علم النفس لمعرفة وتحليل الحالة النفسية التي يكون عليها الشخص من خوف أو قلق واضطراب، ومن ثم فلها متغيرات وثوابت: (٣)

- متغيرات تتعلق بانفعالات المواقف والنطق بلغة صامتة عما يجيش في الصدور.
- وثوابت عن طبع وتطبع ذلك الإنسان الذي ترتسم على عينيه صفاته سلبا أو إيجابا.

وغالبا ما تسمى لغة العيون بـ " نوافذ الروح"؛ لأنها يمكن أن ترسل الكثير من مختلف الإشارات غير اللفظية.

لذا يستعار لفظ "العين" لمعان كثيرة ، حيث تستعار للثقب تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سيلان الماء، وقيل: للجاسوس عين بجامع النظر في كل، وقيل للذهب: عين تشبيهًا بها في كونه أفضل الجواهر كما أن هذه الجارحة أفضل الجوارح ، وغيرها من معان مجازية كثيرة ، إن دلت إنما تدل على شرف الكلمة ومكانتها في اللغة وفصاحتها.

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٩٥.
(٢) سورة الطور، آية ٤٨.
(٣) سيكولوجية الدافعية والانفعالات محمد محمود بني يونس، ص ٢٢٨، بتصرف.

إن الإنسان يمكنه التحكم في العين بالنظر الى ما يريد بتحريك العين يمينًا أو يسارًا، ولكن لا يمكنه التحكم بالتعبير عن طريق العين، فمثلا عندما يتعرض الإنسان لشيء يحزنه يستطيع أن يتحكم بفمه فلا يبتسم، وأن يتحكم بلسانه بأن لا يتكلم، لكن لا يقدر أن يوقف الدمعة التي تزرف من عينه، ولا يمكنه أن يُخفي الحزن الظاهر علي عينيه.

ومن ثم شكلت العين جزءًا مهمًا في التواصل الإنساني الفاعل؛ لذا أصبحت العين صاحبة تلك اللغة الخاصة من لغات الجسد التي ساعدت على التواصل غير اللفظي بالذات الإنسانية، بناء على مدلول لفظها المتعدد.

وهنا نتساءل لماذا آثر النظم القرآني صيغة المثني في قوله:﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ مع أن المفرد في هذه الحالة يفي بالغرض ويغني عن المثنى؟

والجواب أن صيغة المثنى هنا أبلغ من المفرد لأنها؛ تثبت بما لا يدع مجالا للتساؤل، بأن بياض العين كان من نصيب العينين معًا وليس من نصيب أحدهما دون الآخر.

كما أن في ذهاب ماء العينين معًا دليل على أن الحزن فوق كل احتمال، وهذا ما دلَّ عليه النظم القرآني عندما سبقها بلفظ: ﴿ ابْيَضَّتْ ﴾ لظهور مسحة الحزن والندم، حيث كان أغلب وقته مهموما قَلِقًا منكسر الخاطر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، [1] وكأن الحزن والهم عندما تملَّك منه، حاول أن يجد له متنفسًا ومخرجًا من خلال بياض عينيه " العمى النفسي" ، عسى أن يكون مشفاة للصدور الولعة الحزينة.

(١) سورة يوسف، آية ٨٥.

ومن المعروف أن المرض الذي يصيب العينين لم يكن مفاجئًا بل يستغرق فترة زمنية قد تطول أو تقصر، وفقدان العين لقوة الإبصار يحدث تدريجيًا، نتيجة تعتيم عدسة العين، ويطلق عليه "القرنية".

ومن ثم ورود اللفظ مثنى لإفادة أن أحد عينيه أصيبت ببياض العين ثم تلاها العين الأخرى، ثم تلاها الضعف الشديد أو العمى النفسي ؛ لذا قيل : "لم يبصر شيئًا ست سنين". (١)

ومن ثم دلَّ مثنى ﴿عَيْنَاهُ﴾على مكبوتات النفس إما من نتاج الحرمان أو تأنيب الضمير وولعة النفس وندمها على فقد عزيز أو شيء غال.

لذا وصف النظم القرآني هذا السلوك الانفعالي بكلمة دلت على معناها قبل أن توضع في تركيبها؛ لأن لوعة الحزن الناتج عن الحرمان تكسر العينين، فيجدر بنا أن نترفق بصاحبها ونعامله بحكمة.

ومن الإعجاز النفسي أيضًا أن جعل بياض عين نبي الله يعقوب-عليه السلام- نتيجة لـــــحالة الْحُزْنِ الشديد الذي انتابه؛ لذا قال: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾؛ وليس من كثرة البكاء إذ بالبكاء تشفى الصدور وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة في علم النفس، إذ" لا توجد علاقة تربط بين العمى النفسي وبين كثرة البكاء؛ "لأن البكاء حدثٌ عارض".(٢)

لذا لم يربط النظم القرآني بينهما فلم يقل:" ابيضت عيناه من البكاء" حيث لم يعد البكاء هنا سببًا رئيسًا للعمى النفسي؛ ولكن الحزن الشديد الذي انتاب نبي الله يعقوب -عليه السلام- كان هو السبب الرئيس في العمى النفسي ، بناء على رغبة قوية سيطرت على إرادته نتيجة للحزن العميق الذي عاشه من خلال حرمانه من

(١) انظر الوحدة الموضوعية في سورة يوســف، حســن محمــد بــاجودة ص ٣٠٣، ٣٠٥، والجامع لأحكام القرآن٩/ ٢٤٨.
(٢) سيكولوجية الدافعية والانفعالات محمد محمود بني يونس، ص ٢١٨.

فلذة كبده، حيث تحول الحزن إلى مرض نفسي أسبابه ماديه في الغالب، تزول بزوال سببه؛ لذا قال : ﴿ مِنَ الْحُزْنِ﴾

فـــ ﴿مِنَ﴾ هنا سببية؛ لأن الحزن سبب لبياض العينين، وفي ذلك يقول ابن عاشور:(فإن توالي إحساس الحزن على الدماغ قد أفضى إلى تعطيل عمل عصب الإبصار، على أن البكاء من الحزن أمرٌ جِبِلِّيٌ فلا يستغرب صدوره من نبي)،[١] وما ذكره ابن عاشور هو ما تم ذكره آنفًا في الإعجاز النفسي والذي يسمى (العمى النفسي) ، وهذا من الإعجاز النفسي في القرآن الكريم.

و" لام" ﴿ الْحُزْنِ﴾ لام العهد العِلمي ، ويقال لها العَهْدُ الذِّهْني : و هو أنْ يَتَقَدَّم لِمَصْحوبِها عِلْمٌ، فقد تقدم وصف الحزن في قوله : ﴿ يَا أَسَفَى﴾ ؛ لأنَّ ذلك مَعْلُومٌ عنده ، ومن ثم لم يقف حزن يعقوب–عليه السلام– عند حد الحزن الذي تسبب عنه بياض العيْن بل أصبح يتجرع الغيظ ويتجلد ولكن على حساب، جسمه وأعصابه، لذا قال المولى –ﷻ–:

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾

ومن هنا جاء العطف بحرف "الفاء" والذي أفاد الترتيب ، فكأن مرحلة الكظم هذه جاءت بعد حزنه وبياض عينيه بلا مهلة، وبصورة سريعة ، ولا يمنع أن يجمع في الكظم حزن قلبه على يُوسف، والغيظ الشديد من أولاده
الذين تسببوا له في كل هذه المواجع والأحزان؛ وذلك لأن كظم الحزن الشديد في القلب وحبسه في الصدر هو " أفدح الحزن، وأشدّه قسوة ".[٢]

وهنا أراد النظم القرآني أن يُظهر هذا المعنى عن طريق الاستعارة التصريحية التبعية ؛ فقد شبه امتلاء قلبه بالحزن على يُوسف والحزن أيضًا على ما فعله

(١) التحرير والتنوير مجلد (٧) ١٣/ ٤٣.
(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب٣/٣٥ ، دار الفكر العربي – القاهرة.

أبناؤه به بامتلاء القربة بالماء، وشبه صبره في أمره وترك الشكوى لغير الله برباط ربط على فم القربة حتى لا يخرج منها الماء ، وهذا معنى "كظيم". (١)

وتكمن بلاغة هذه الاستعارة أن فيها تصويرًا لهذا الحزن الذي ملأ القلب، وتبيانًا له ، وذلك بإخراجه من المعقول إلى المشاهد المحسوس ، كما أن فيه دلالة بما تضمنته هذه اللفظة من إيحاء على طبيعة هذا الحزن الذي يمتلك القلب، وعلى بيان طبيعته، والاستعارة هنا أبلغ من الحقيقة ، وأدلَّ على غرض الآية ، وبيان المراد منها.

وقد زاد هذا الكَظْم عظمةً وفخامةً أن ذكره بعد ذكر المسند إليه حيث قال : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ؛ وذلك لضعف الاعتماد على القرينة ومن ثم احتاج إلى ذكر المسند إليه في إفهام المخاطَب؛ وليبين أهمية تلك المرحلة إذ يُكتمل فيها بيان "أن أشرف أعضاء الإنسان كانت غريقة في الغمّ ، فاللسان كان مشغولا بقوله " يا أسفى" والعين بالبكاء والبياض ، والقلب بالغمّ الشديد الذي يشبه الوعاء المملوء الذي شدّ ولا يمكن خروج الماء منه ، وهذا مبالغة في وصف ذلك الغمّ".(٢)

- **ربط الشكاية بالحزن والبث إلى الله تعالى** .

فالحزن والأسى يمكن أن ينتهي ببّثه إلى الناس، وإفراغ الهموم والأحزان والغمّ والهمّ وأسبابها إليهم، مما يريح النفس ويَجْلي الصدر خاصة إذا بثه إلى أهل الصلاح أو التخصص، أما إذا بقيت هذه الأحزان مأسورة في القلب بعد أن جفت العين من البكاء، فهذا قمة مراحل الحزن ، ومن ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ ﴾ (٣)

(١) الكشاف للزمخشري ٢/٤٩٠.
(٢) مفاتيح الغيب الرازي ١٨/ ٤٢٤.
(٣) سورة يوسف، آية ٨٦

وقد جاءت هذه الجملة ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ﴾ لإثبات الشكوى وبث الحزن لله تعالى، وقصره عليه سبحانه دون سواه ، وهذا من الواضح بمكان، وذلك أن القصر بطريق (إنما) إنما يكون في المعاني المعلومة الواضحة ، التي لا ينكرها المخاطَب ولا يشك فيها.

بيد أن خلَّف هذا القصر تعريضًا بأولئك الذين لا يبثون شكواهم إلى الله- ﷻ-، ومن هنا يتبين أن في طيات هذا القصر تعريضًا ، وذلك لما تضمن هذا القصر من نفي وإثبات ، فقد حصر الشكاية إلى الله وحده وفي نفس الوقت نفاها مما سواه وكأنه يقول: " إنما أشكو حُزْنِيَ العظيم ، وما دونه من الحزن إلى الله لا إلى غيره من الناس".(١)

ولو خلا النظم في هذا الموضع من القصر وقيل:" أشكو بثِّي وحُزني إلى الله"، لخلا من التعريض أيضًا، لأن فيه إثبات هذه الشكوى لله تعالى دون نفيها عمن سواه.

ومن أجمل مواقع (إنما) في الكلام هو استخدامها في التعريض، كما في هذه الآية الكريمة، وقد أكد هذه الحقيقة وقررها الإمام عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن (إنما) حينما قال: (ثم اعلم أنك إذا استقريتَ وجدتها أقوى ما تكون، وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يُراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه) . (٢)

- **التعريض ودلالته**.

ومما يجدر بنا الإشارة والتنبه إليه ونحن نتحدث عن هذا التعريض ودلالته ما هُدينا إليه فيما يلي :

---

(١) فتح القدير الشوكاني ٣/٤٩.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٥٤، ثم ذكر بعد هذا كلامًا نفسيًا حول التعريض بـــ(إنما).

• **أولا** : قابل بهذه الصورةَ النفسية الحزينة القائمة على وصف خلجات نفس يعقوب- عليه السلام- صورةٌ نفسية أخرى لأبناء يعقوب-عليه السلام-وهم يردون على أبيهم الكمَد وأعنف الردّ وأقساه من خلال هذا الحوار الدائر بينهم قال تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.(٢)

ومن ثم فإن القوم المعرَّض بهم، هم الذين تقدم ذكرهم في الآية السابقة؛ لأنهم هُم الذين كانوا سببًا فيما حلَّ بأبيهم وأخيهم ! وهُم الذين استجلبوا الحُزن لقلبِ والدهم يوم أن غيّبوا أخاهم عن عيني أبيهم؛ ليعيش سنين من الألم ينتظرُ فيها رؤية ابنه ، فما كان منهم إلا أن ﴿ قَالُواْ تَاللّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾، ليأتي ذلك الجواب القوي الذي حطّم كل قوى اليأس و هدَمَ كلَّ معالمِ القنوطِ ، فيقول لهم يعقوب – عليه السلام- ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

نعم ..لا يشكو إليهم ولا يطلب منهم ولا من أي مخلوق أي شفقة أو إحسانًا، لا يشكو إليهم، ولا يطلب منهم أذنٌ تسمعه ، ولا قلبٌ يعي قولـــه، ولا لسانٌ حلوٌ يخفف عنه، هو لم يـــُرِدْ منهم أي معروف، بل يطلب من رب الأرض والسموات ويشكو إليه ما حَدَث له حيث يرفع إليه تضرعاتِ قلبه وابتهالاته وتسابقه الدمعات قبل الدعوات.

فيعقوب – عليه السلام- لم يلتفت لكلام أبنائه ولا ليأسهم وإنما قال: ﴿ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ وفي ذلك يقول ابن حبان البستي:(١)

وإذا عَرتْك بليةٌ فاصبرْ لهـــا	∴	صبْرَ الكـريمِ فإنّه بكَ أعلـــمُ.
وإذا شـــكـوتَ إلى ابنِ آدمَ إنما	∴	تشكو الرحيمَ إلى الذي لا يرحمُ.

(٢) سورة يوسف، آية ٨٥.
(١) انظر مدارك السالكين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بـــالله البغـــدادي ٤٣٥/٢، دار الكتاب العربي ٢٠٠٣م.

• **ثانيًا** : في مجيء لفظة ﴿أَشْكُو﴾ فعلا مضارعًا دلالة في هذا التعريض ، وبيانًا له، وذلك بأن يعقوب–عليه السلام– عندما اختص المولى –عز وجل– ببث شكوى الحزن عليه دون غيره ، فهو بذلك يحرك مشاعر أبنائه ، لأنهم لم يَصْغَوْا إليه ألبته، ومن ثم كان طبيعي أن يُعرِّض بهم حتى يجعلهم يفيقوا مما هم عليه ، فأشار إلى حالهم وتآمرهم، ويذكر واقعهم مع الله تعالى .

ويعقوب –عليه السلام– يعلمُ من الله ما لا يعلمُ أبناؤه، يعلمُ أولاً أمرَ الرؤيا التي كان يرجو أن تُحقق، و يعلمُ رحمةَ الله و لُطفه به و بابنه، و يعلمُ عظيم فضل الله عليه، ويعلمُ يعقوب –عليه السلام– أن الله قدير ولا يعجزه شيء وأن خزائن السمواتِ والأرضِ مِلكَ يديْه، وأن أمره إذا أراده قال كُن فيكون، يعلمُ يعقوب – عليه السلام – من الله ما لا يعلمون، مِن أن الله سيرد إليه أبناءه وسيجتمع بينهم.

• **ثالثًا:** في هذه الجملة ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾، إشارة إلى أن يعقوب–عليه السلام– أدرك الغاية من ابتلاء الله تعالى له ، وحدث ما حدث بمقتضاه، وهي رؤيا يوسف–عليه السلام– التي قصها على أبيه، والتذكر بها والاعتبار حين نجد يعقوب – عليه السلام– يبعث الأمل في نفوس أبنائه ويقول : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، [1] موقفٌ كان فيه يعقوب مكلوم وكظيم وحزين، وعيناه ابيضّت من حُزنه وألَمه وهَمّه الذي عايشه سنين، فكان هو من يبعث الأمل في نفوس أبنائه، ويذكّرهم بالله وبحُسن الظن به.

ويعقوب–عليه السلام– في موقف عصيب ونفسه متلهفة على ابنه وخاطره مكسور وقلبه محروق وكبده حـــرى، ومع ذلك كله يقول لأبنائه ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، يوسف الذي فقده من سنواتٍ طويلة ، يوسف الذي

(١) سورة يوسف، آية ٨٧.

غاب وهو غلام ولا يرجو أحدٌ رجوعه إلا والده المؤمن، يوسف الذي ما بحثَ عنه أحد، يوسُف الذي قيل أن الذئب أكله ومات.

ويستمر النص في متابعة الحوار﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ ليعيد صورة يعقوب الحزينة وهو يبث شكواه إلى الله آملاً أن يذهب الحزن عن قلبه بعودة يوسف -عليه السلام- إلى كَنَفِهِ الدافئ، وتكمن جمالية الصورة في الجمع بين المتناقضين القائمين على التقابل.

وقد دلَّ على هذه المعاني كلها ، وأشار إليها التعريض الذي جاءت به هذه الجملة ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾، ومن هنا تتجلى بلاغة التعريض ودلالته في بيان مظاهر انفعال الحزن عند يعقوب- عليه السلام- ،وقد تم بيان هذه الأمور كلها ، وذكرها تعريضًا لا تصريحًا.

وساعد على إظهار ذلك المعنى تقديم لفظ ﴿بَثِّي﴾على لفظ ﴿ وَحُزْنِي﴾؛ وذلك لأن البث هو الحزن العظيم والحزن ما دونه، قال أبو السعود: " البث: أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس، أي ينشره "،[١] وقال الميْداني: " والبث: الشكوى التي يصرح بها الشاكي بلسانه عن أوجاعه وآلامه المادية والمعنوية".[٢]

لكن هل هناك فرق بين "البث" و"الحُزن"؟ أم أن بينهما اشتراك؟ يجيب على ذلك الإمام الرازي بقوله: " فالحزْن إذا ستره الإنسان كان همّا، وإذا ذكره لغيره كان بّثا، وقالوا : البث أشدّ الحزن ، والحزن أشدّ الهمّ ". [٣]

(١) إرشاد العقل السليم ، أبو السعود ٣/٤٢٤.
(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ١٠/ ٧٢٣، دار القلم – دمشق.
(٣) مفاتيح الغيب الرازي ١٨/ ٤٢٤.

وقال الميداني: " وعطف الحزن على البث يقتضي المغايرة ، فالمعنى : ما أشكو حالي وضعفي ومرضي وحزني إلا إلى الله بيني وبينه ، ولا أشكو لأحد سواه".(١)

إلا أن ابن عاشور لا يرى وجود هذه المغايرة حيث يقول: " البث : الهمّ الشديد وهو التفكير في الشيء المسيء، والحزن : الأسف على فائت، فبين الهمّ والحزن العموم والخصوص الوجهي ، وقد اجتمعا ليعقوب لأنه كان مهتما بالتفكير في مصير يوسُف وما يعترضه من الكرب في غربته وكان آسفا على فراقه ".(٢)

ولورود لفظ " البث" معطوفًا على الحزن، ولدقة الفرق بينهما عدَّهما كثير من العلماء من المترادفات الذي يختلف لفظه ويتحد معناه.

وأصل البث في اللغة : التفريق والانتشار، (٣) ومنه قوله تعالى :﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً﴾، ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾،(٤)

فالبث : الهم الشديد سمّي بذلك لعدم قدرة صاحبه على تحمّله حين يجتمع ويتكاثف فيضيق الصدر به ويضعف العزم على كتمانه فيبثّه الناس ، ويتخفّف إليهم منه .

لذا عَطْف " البث" على" الحزن" عطف مغايرة لا عطف ترادف ، والقصد من ذكرهما معًا، الجمع بين نوعي الهم للدلالة على أن يعقوب -عليه السلام- إنما يفزع إلى الله وحده في كل أحواله ، ويشكو له وحده جميع أنواع همومه: "الحزن القديم الذي تسلط واشتد غلظة بمرور الأيام ، والبث الجديد الذي نما وتزايد حتى

(١) معارج التفكر، الميداني ٧٢٤/١٠.
(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٤٥/٦.
(٣) في رحاب الأنبياء والرسل ، عبد الحليم محمود ، كتاب اليوم ، العدد ٢٩٣، القاهرة ١٩٨٩م.
(٤) سورة الواقعة ، الآيات ٥، ٦ ، وسورة القارعة ، آية ٤.

ملأ الصدر على رحابته ، وضاق به الصبر على سعته ، فلم يجد له حيلة ، ولم يستطع له علاجًا إلا أن يبثه إلى الله ليستعين عليه ".[١]

وهكذا نرى أن هذا المشهد أكثر مشاهد القرآن الكريم حزنًا، لأنه جمع بين مراحل الحزن كلها، حيث وصف النظم القرآني هذه الحالة الغريبة بوصف غريب مثلها ، واختار غريب الكلمات حتى تتحقق مشهد الغرابة في الموقف.

ومن ثم لا نجد في الكلام أوضح وأصدق من هذه الصورة التي التقطتها هذه الكلمات القليلة لوصف ذلك الموقف المتأزم الخانق بين يعقوب -عليه السلام- وأبنائه، وبعد أن فعلوا فعلتهم بيوسف -عليه السلام- ، والله تعالى أعلى وأعلم.

وأخيرًا وبعد أن هُدِينا إلى إظهار مظاهر حزن الآباء على الأبناء في القرآن الكريم، وكان حزن يعقوب -عليه السلام- أنموذجًا ، والذي من خلاله هدينا إلى أن النظم القرآني قد وصف هذا المشهد وصفًا يَعْجَزُ عن وصفه أرباب البيان ، ننتقل إلى بيان مظاهر حزن الأم على رضيعها المتمثل في حُزْنِ أُمِّ موسى -عليه السلام- على رضيعها حيث أصبح فؤادها فارغًا.

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني ، عبد الظاهر الجرجاني ، صححه ، محمد عبده ، تعليق : محمد رشيد رضا، ص١٢٢، ط/ ٦، ١٩٦٠م ، مطبعة محمد صبيح .

المبحث الثاني

"مظاهر حزن أم موسى -رضي الله عنها-".

- **المحور الأول** :

استلزام انفعال القلب والفؤاد في حزن أم موسى -رضي الله عنها-

- **المحور الثاني** :

الجملة القرآنية وجمال صياغتها في وصف حزن الأبوين.

المحور الأول :

استلزام انفعال القلب والفؤاد في حزن أم موسى- رضي الله عنها-.

ذكرنا فيما سبق كيف وصف النظمُ القرآني حزن مَن بُشِّر بالأنثى؟ كما حكى لنا حزن أب مكلوم فَقَد ابنه!! ، والذي من خلالهما هُدِينا إلى أن النفس الإنسانية هي النفس الإنسانية في كل زمان ومكان، ومن سماتها أنها تتأثر بالأحداث الزاخرة بها في هذه الحياة، حتى لو كانت هذه النفس نفس نبي الله يعقوب-عليه السلام-، ليظهر لنا مدى تأثير الأحزان على جوارح الإنسان وما تبعه من إعجازٍ بلاغيٍ ونفسيٍ.

ومن ثم فحَرِيٌّ بنا الآن أن نستكمل وصف النَّظْم القرآني لمظاهر حزن الأم، من خلال وصف مظاهر حزن أم موسى- رضي الله عنها-؛ لنتأمل سويًا كيف وصف النظم القرآني مظاهر حزن تلك الأمّ المكلومة ، والتي امْتُحِنت في وليدها الرضيع امتحانًا شديدًا، موقف عصيب محال، لا تتحمله الجبالُ فكيف بالرجال؟ بل كيف بامرأةٍ ضعيفةٍ وأُمٍّ حنون فرغ لُبُّهَا وزاغَ عقلُها من هَوْلِ الموقفِ؟ إنها: أمُّ نبيّ الله موسى-عليه السلام-. (١)

وآثرت مظاهر حزن أمّ موسى-رضي الله عنها-؛ لأنها تعتبر نموذجًا للأم المؤمنة الصابرة، الواثقة بالله، المصدِّقة بوعده، المنفِّذة لأمره، ومن ثم كافأها المولى-عز وجل-على ذلك بالتكريم والثناء، فأعطت درسًا عمليًا لكلِّ الناس رجالاً ونساءً.

وعلى الرُّغمِ من أنها ليست من الأنبياء إلا أنه -عز وجل- تَعاملَ معها تعامُلاً غريبًا في وصف حزنها، والذي يصف من خلاله حزنَ الأمهاتِ على أبنائهن

---

(١) لم يذكر القرآن اسم أم موسى صراحة، وذكر المؤرخون لها أسماء عدة، فقيل: باختة، وقيل: لوحا بنت هاند بن لاوى بن يعقوب، وقيل غير ذلك، ولد موسى-عليه السلام- في عام قتل فرعون للأبناء، فضاقت أمه به ذرعًا، وامتلأت خوفًا على وليدها! موسى-عليه السلام-، البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير٨/٢٥٠، مكتبة المعارف بيروت ١٩٩٠م.

بصفةٍ عامةٍ، بأسلوبٍ بلاغيٍ مُعجزٍ يحتوي على تصوير دقيق بديع مؤثر لعواطف أم موسى –رضي الله عنها– تعجز الألفاظ عن التعبير عنها؛ لنأخذ منه المعاني والدلالات، والدروس والعِبَر.

حيث أورد الحديث عنها في سورتَيْن: سورة طه، وسورة القصص، إذ تحدثت سورة القصص عن اضطهادِ فرعون لبني إسرائيل وتعذيبهم، وذبحِ أبنائِهم، واستحياء نسائِهم.

وفي هذا الجَوّ «الإرهابي» الذي أشاعَهُ فرعون في بني إسرائيل حملت الأم الإسرائيلية المُضطَّهدَة بجَنِينها، ورتّب الله الأحداث بحكمته؛ لتحقيق إرادته فهو الفعّال لما يريد.

وكانت بدايةُ الترتيب، الإيحاءُ ثم الإرشادُ إلى كيفيةِ التصرفِ؛ حيث قال في سورة القصص: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقال في سورة طه: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ .(١)

وقد أوْحَى الله تعالى إليها بإلهامِها إلهامًا فطريًا، وذلك بأن وجَّه قلبَها إلى كيفية التصرف، ومن ثم نفّذت ما أوحى الله إليها، فالتزمت بما فيه من إخبار وأوامر ونواهٍ وبشارات.

ولكن هل رأيتم أُمًّا تضع ابنها في صندوقٍ ثم ترميه في البحر ليستلمَهُ عدوه؟ أيُّ أُمّ هذه! وأيُّ قلبٍ يحتملُ هذا الفعل؟! يا الله! ألقت في البحر جنينها مهجةَ روحِها؟! فأي أُمّ أنت يا أمّ موسى؟ وأي قلب قلبك؟ وأي نفس نفسك؟

(١) انظر سورة القصص، آية ٧ ، وسورة طه ، الآيات ٣٨، ٣٩.

ثم تظهر المفاجأة من تلك الأم المؤمنة الصابرة حينما سمعت أن صغيرها وقع في يد فرعون، فماذا عساها أن تفعل أمام كل هذا الجبروت؟ وماذا بيدها أن تصنع مع كل هذه الإجراءات لقتل وليدها وفلذة كبدها؟!

تساؤلاتٌ عديدةٌ يُجيب عنها النَّظْمُ القرآنيُ بأسلوبٍ في غايةِ الإبداعِ البلاغي والنفسي المؤثر؛ ليظهر لنا أن حزن الأم يفوقُ كلَّ الأحزانِ، آهٍ يا أمّ موسى؟! آهٍ لقلبك!! هل صبرت؟! آهٍ لحالك كيف ثبت؟! فالقلب ينزف دمًا ونحن نغوص في بحار أحزانك عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.(١)

إذ عبَّر عن مظاهر حزنها « بفراغ الفؤاد» و« ربط القلب»، ونلاحظ أن رب القلوب -ﷻ- عندما وصف مظاهر الحزن التي تتعلق بالأم لم يأتِ بجوارح الإنسان الظاهرة، بل آثر لفظي "الفؤاد والقلب"؛ لأن حكاية أم موسى-رضي الله عنها- فيها الكثير من أسبابِ الحزنِ؛ لذا كان وصف النَّظْم القرآني لمظاهر حُزنها دقيقًا .

لذا قال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ فبدأ بعطف جملة ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ على جملة ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾،(٢) بالواو دون سائر العواطف، لوجود الجامع الذهني بينهما.

والجامع الذهني يتمثل في المتضادّين فرح امرأة فرعون باغتنامها لهذا الطّفل الرضيع ، ومن ثم قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾؛ لكونه نعمة ومتعة لها تفرح به وتقنع؛ لأنها ستصبح أم بالتبنِّي، وحزن أُمّ فقدت رضيعها فأصبح فؤادها فارغًا؛ لأنها فقدت ابنها الحقيقي وفلذة كبدها.

إذ بينهما جامع ذهني، لانتقال الذهن من أحدهما إلى الآخر، وهناك جامع ذهني آخر يتمثل في محبتهما لسيدنا موسى-عليه السلام-، مع اختلاف أسباب هذا الحب.

---

(١) سورة القصص، آية ١٠.
(٢) سورة القصص، آية ٩.

فمن المعلوم أن الله-ﷻ- إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾،(١) وقد عبَّر عن ذلك في خطابه لنبيه موسى- عليه السلام- بقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾،(٢) أي: ليس بذاتك أن يحبك من يراك يا موسى، وإنما بمحبة الله تعالى لك.

ومن أجل ذلك أحبَّته آسية امرأة فرعون وانشرح صدرها فتمسكَّت به رغم معارضة فرعون لذلك، ومهما بذل الخلق وعملوا وأَفنَوا الأموال والأوقات في الحيلولة دون وقوعه فإن تدبيرهم وسعيهم وبذلهم وإنفاقهم يكون على خلاف مطلبهم، وهذا فيه عِبرة عظيمة.

ومن هنا آثر النظم القرآني العطف للتوسُّط بين الكماليْن؛ لاتحاد الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى، مع وجود الجهة الجامعة بينهما؛ ولعدم وجود مقتضى للفصل.

إذ الوصل هنا دعت إليه الحاجةُ واقتضاهُ المَقَامُ ؛ لبيان الجهة الجامعة بين المحَبّة التي ألقاها المولى-ﷻ- في قلب آسية امرأة فرعون، والحب الطبعيَّ الذي يتخلل فؤاد أمه الحقيقية، وهذا كله من صنع الله تعالى.

ومن هنا عبَّر النظم القرآني بالجملة الفعلية ﴿وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾؛ لدلالتها على التجدد والحدوث، وهذا الحدوث مستفاد سواءً تقدم الفعل أو تأخر؛ ففراغ فؤاد أمّ موسى-رضي الله عنها- وقع وانتهى؛ لأنه جاء في سِيَاق الجملةِ الفعليةِ الماضيةِ؛ لأنها تدل على حدوث الشيء ثم انقطاعه.

لذا عبَّر عمَّا كانت تشعر به بصيغة الماضي ﴿أَصْبَحَ﴾، مع الفعل الدائم بصيغة اسم الفاعل -الصفة الدالة على الإسمية الثابتة- ﴿فَارِغًا﴾؛ لأن الجملة التي مُسندها فعل إنما تدور على معنى دلالي وهو (الحدوث)؛ لارتباط هذا الفعل

(١) سورة يس ، آية ٨٢.
(٢) سورة طه ، آية ٣٩.

(المسند) بالزمن؛ لأن الزمن جزء منه، كل ذلك للدلالة على ما أصاب الفؤاد من الحزن والهم.

وقيل: ﴿أَصْبَحَ﴾ بمعنى "صار" بِغَضِّ النظر عن الزمن؛[١] لأنه اقتضى تحوُّلا من حالة إلى حالة أخرى؛ لأن المصيبة عظيمة جدًا ، ومن ثم أصبح هناك تَغيُّر في حالها بعد فقدانِ رضيعِها، وهذا التحوّل يبيِّن مدىَ الأثر النفسيّ الذي يحدث عند الأُمّ في مثل تلك الحالة.

ويمكن أن تكونَ﴿أَصْبَحَ﴾ من الإِصبَاحِ ففيه دلالة على الانتقال من الليل إلى النهار من حيث اعتبار الزمان، وعلى ذلك يمكننا القول: بأنه في صباح تلك الليلة تملكت الوسَاوِسُ والهواجسُ منها بعد أن ألقت بفلذَة كَبدها في اليَمِّ، حتى صار فؤادُها فارغًا لا تفكر في أي شيء إلا في رضيعها.

ومن دلالة هذا الفعل نهتدي إلى تصوير الاضطرابات النفسية التي انتابتها حتى تملَّكت منها في صباح ذلك اليوم.

وهذا أَوْلى من أن نجعلَ﴿أَصْبَحَ﴾بمعنى صارَ؛ لأن الشيء يُحزَن عليه عند فقده، لكن إذا طال الزمن، فإنه قد يُنْسَى، وعليه فظاهر اللفظ يدل على دخولها في صباح تلك الليلة التي حدثت فيه تلك الواقعة–والله أعلم–.

وكَيْفَ لا ؟ وهذا الصَّغير فلذة كبدها، وقُرَّة عينها، وثَمرة فؤادها، فمثلها لا يُلامُ على فراغ الفؤاد؛ لأَنَّ فَقْدَ الأبناء ليس بالأمر الهيِّن، ونحن بَشَر لا نَملك أمرَ قلوبنا، فكيف إذا كان هذا القلبُ المفجوع هو قلب أم؟! أَجَلْ، لولا أنَّه وعدٌ صادقٌ، وموعودٌ جامعٌ.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، خرج أحاديثه محمد بن عبد العزيز الخالدي ٦/ ٣٠٣، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ط/١، ١٩٩٦م.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ∴ نم فالمخاوف عنك في إغضاء [١]

وبإيثار الفعل ﴿أَصْبَحَ﴾، أراد النظم القرآني أن يُظهِرَ ما يحدث للأمِّ نفسيًا بنبرةٍ بها تشويقٌ لما يأتي بعده، ففؤاد الأم مشغول دائما بالتفكير في أحوال أولادها وهذه طبيعة بشرية أودعها المولى -ﷻ- في قلب كل أم.

وإذا تأملنا الآية الكريمة، نجد فيها مراحل مرتبة بعضها على بعض، ترتيبًا إعجازيًا، وترتيب هذه المراحل هو الذي هداني لبيان ذلك الإيضاح والتفسير لهذا الإبهام.

فقوله :﴿ أَصْبَحَ﴾ يدل على أن هناك شيئًا ما حدث لهذه المرأة المكلومة على فراق ابنها، إلا أنه خَفِيٌّ ومُبْهَم وهذه مرحلة أولى.

ومن ثم جاء بـــــقوله : ﴿ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى﴾ ليوضح لنا ذلك المجهول بأن أم موسى هي المقصودة بهذا الوصف بعد أن ألقت بابنها في اليَمِّ ، وهذه هي المرحلة الثانية، ففيها توضيح لما صار عليه حال تلك الأم.

وهذا الكلام زادنا تشويقًا وتأكيدًا عندما اكتمل ذكر الجملة باسمها وخبرها وإضافاتها من خلال الفعل ﴿أَصْبَحَ﴾ واسمه ﴿فُؤَادُ﴾ والمضاف إليه ﴿أُمِّ ﴾ والمضاف إليه الآخر﴿مُوسَى﴾، ومن ثم جاءت تلك الجملة معرَّفة عن طريق الإضافة، حيث أفادت الاختصاص، أي: أن من كانت بهذه الحالة هي أم موسى فقط.

ويزداد الغموض والإبهام إلى أن يصل النَّظْمُ الكريمُ إلى اسمِ الفاعلِ: ﴿فارغًا﴾ وهو خبر﴿أَصْبَحَ﴾ ؛ ليوضح الأمر غاية الوضوح، وهو أن سبب تغيير فؤاد أم موسى، حيث أصبح لا شيء فيه مما يضبط السلوك، هي مشاعر الأمومة

(١) ديوان الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي، جمع وتحقيق د/ صابر عبد الدايم، ص٢٠٠، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.

التي فطر الله الأم عليها، إذ بلغت مرحلة الدهشة واللهفة، وهي المرحلة الثالثة التي أراد النظم أن يظهرها قبل اكتمال الوصف بقوله: ﴿ فَارِغاً﴾.

ومن ثم هُدينا إلى التشويق الذي آثره النظم القرآني ؛ ليجذب السامع إلى معرفة ما يدور في خلجات تلك الأم المكلومة على ولدها، وأخذت النفوس تتطلع إلى الوقوف على ماذا حدث لها، بعد أن وصل فؤادها إلى أنه ﴿ فَارِغاً﴾، فجاء بقوله : ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ .

ومن ثمَّ ينتابنا شيء من الخوفِ ونتساءل هل أفصحت عن حال وليدها؟ وكأن النظم القرآني يتابع ما ينتاب السامعُ والقارئُ فيحذف جوابَ الشرطِ زيادةً في التشويق فيقول: ﴿كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، وكأن التشويق ما زال يراود متابع الأحداث، فيدور الحوار بينه وبين ربه، وكأنه يقول: ولماذا ربطت على قلبها ؟ فيقول: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فياله من تشويق مرتب عبَّر عنه رب الأنام ليُزِيل الإبهام!! والذي من خلاله تظهر لنا عاطفة الأمومة الجياشة بالحب والحنان، المَشُوب بالخوف والخَشْية، فكبير ذلك الفؤاد الذي تحمله تلك الأم، وعظيمة تلك المشاعر والأحاسيس التي أودعها الله في قلبها، لذا ربط عليه.

- **الدلالة التعبيرية للفظي " الفؤاد " و " القلب "**.

ولعل تساؤلًا يطرح نفسه، لماذا جمعت الآية الشريفة بين الفؤاد والقلب في سياقٍ واحدٍ؟ وهل هما بمعنى واحدٍ؟ وإذا كانا بمعنى واحد فلم لم يُعبِّر الله تعالى بأحدهما دون الآخر؟؟ وإن كانا بمعنييْن مختلفيْن فما الفرق بينهما؟؟

هناك ظواهر في القرآن والسنة تؤكد اختلاف القلب عن الفؤاد، الكلام حول القلب والفؤاد طويل ومتشعب.

وبالعودة إلى جوِ الآيةِ الكريمةِ نرى "أم" تُلقي بيديها ابنها في اليَمِّ، كيف سيكون حالُها ؟؟ وكيف سيكون حالُ فؤادِها؟ إلا أن يكون مضطربًا يحترقُ على الجَمْر.

لذلك يعتبرون الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فُؤَادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّدِ الدَّال على التَّوَقُّدِ والاشتعال والحرقة يُقال: فأَدْتُ اللَّحْمَ أي: شَوَيْتُهُ، ولَحْمٌ فَئِيدٌ أي: مَشْوِيٌّ، وتَفَأَّدَتِ النارُ: تَحَرَّقَتْ وتوقَّدَتْ.(١)

ومن ثم آثر النظم القرآني موضع الفؤاد هنا ؛ ليصور عاطفة أم موسى – رضي الله عنها – تصويرًا تعجز الألفاظ عن التعبير عنه ؛ لأن قلب تلك الأم يكاد أن يحترق خوفًا على رضيعها؛ لذا أصبح فؤادها فارغًا، لا شيء فيه مما يضبط السلوك ، فكادت أن تسرقها تلك العاطفة.

والآية الشريفة تشير الى ذاكرة تلك الأم، ومن ثم أصبح فؤادُها فارغًا من الوعد الذي أخذته قبل أن تُلقيه في اليَمِّ.

فالفؤاد مُعطَّل أي: فقدت الإحساس، بينما كان القلب صاحب اليد العليا في هذه القضية، ومن ثَمَّ تَمَّ ربطه بتدخل إلهي؛ لبيان هَوْلِ الموقف الذي تعانى منه أم موسى –رضي الله عنها–.

وهنا لعبت المفردة القرآنية دورها في السياق؛ لإبراز هذا الوصف المفجع، إذ جاءت بإشعاع نوراني لتتضافر مع الجملة، فاخْتِيرت اختيارًا بالغًا ، بحيث لا نرى لفظة أولى منها في هذا السياق.

وعلى الرُّغم من مرور الأيام والأجيال والأحقاب، فإن لفظة "الفؤاد" في مكانها الحصين، إذ المعنى كان ناصعًا في لفظها المبين، حيث أوحت بجرس

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٣٨٦.

معناها قبل أن توحى بمدلولها اللغوي، كما أن ورودها في هذا السياق صوَّر ما يَمُوج من عواطفٍ ومشاعرٍ لتلك الأم .

وهنا نري النظم القرآني يحدثنَا حديثًا جامعًا شافيًا عن هذه الأمّ، وعن أحوال النفس الإنسانية بصفة عامة في حال قوتها، وفي حال ضعفها، وفي حال حزنها.

ليُظهر أن الفؤاد يختلف ولو نسبيًا عن القلبِ إذ الفرق بينهما دقيق، عندما أشار إلى المناطق المختلفة للفؤاد حينما قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾،(١) فهذه الآية تشير الى منطقة العواطف في الفؤاد، فلا يمكن أن يقوم الناس بزيارة هذا الوادي الخالي من الزرع والماء إلا أنه يمثل لهم عاطفةً ما.

كما فُسِّرت كلمة ﴿هَوَاء﴾ في قوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء﴾؛(٢) بأنها تعني خلو أفئدتهم من العقل، من شدةِ الخوفِ والرعب،(٣) فقدوا ذاكرتهم كما في حالة أم موسى –عليه السلام–، يُقال : فُئِد الرجُل فهو مَفْؤُودٌ وفأدْتُه إذا أَصَبتَ فُؤَادَه.(٤)

فهذه أم موسى –رضي الله عنها– قد أصبح فؤادها فارغًا من كل شيء إلا من ذكر موسى ولكن رحمة الله أوسع من الدنيا وما فيها، فقد رزقها الصبر واليقين لتكون من المؤمنين.

وهناك ظاهرة أخرى لبيان الفرق بين القلب والفؤاد حيث:

– ذكر النظم القرآني لفظ "الفؤاد" "بعد" حاستي "السمع والبصر" في آيات القرآن الكريم كله.

---

(١) سورة إبراهيم ، آية ٣٧.
(٢) سورة إبراهيم ، آية ٤٣.
(٣) تفسير الكشاف الزمخشري تحقيق : محمد الصادق قمحاوي، ٤٨٣/٣.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ومعه استدراكات عليه من كتاب (الذيل على النهاية في غريب الحديث والأثر) لعبدالسلام علوش ٣/ ٣٠٠، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

- ذكر النظم القرآني لفظ "القلب" "قبل وبين وبعد" حاسَّتَي "السَّمع والبَصَر" فـ :

"قبل" كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ﴾.(١)

و"بين" كقوله سبحانه: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.(٢)

و"بعد" كقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم﴾.(٣)

وهذا إن دلَّ إنما يدلّ على أنَّ للفؤاد خاصِّية لا توجد في القلب، إذ الفؤاد يمثل قلب المخ؛ لذلك يأتي ذكره في القرآن الكريم بعد ذكر السمع والبصر دائما، ومما سبق يتضح أن النظم القرآني أشار إلى مناطق الفؤاد المختلفة ووظائفها في المخ البشري.

ونرى هذا واضحًا في قول المصطفى-ﷺ-:﴿ أَهْلُ الْيَمَنِ هُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَلْيَنُ قُلُوبًا ﴾،(٤) لذا نسب رسول البرية-ﷺ- الرِّقة إلى القلبِ، واللين إلى الفؤادِ، - والله تعالى أعلى وأعلم-.

(١) سورة البقرة ، آية ٧.
(٢) سورة الجاثية، آية ٢٣.
(٣) سورة الأنعام، آية ٤٣.
(٤) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقق محب الدين الخطيب، الصفحة أو الرقم: ٤٣٨٨، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ٢/٤٠٠.

المحور الثاني

الجملة القرآنية وجمال صياغتها

في وصف مظاهر حزن الأبوين.

إذا كانت ألفاظ القرآن الكريم في غاية السمو كما بيَّنا آنفًا ، فإنها زادت جمالا وجلالا بنظمها في الجملة القرآنية التي اقتضتها دون سواها، وذلك ؛ لأن "الجملة القرآنية بناءُ قد أُحكمت لَبِنَاته، ونُسِّقت أدقّ تنسيق لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبُو عن مَوْضعها". (١)

ونرى هذا جليًا عندما وَصَفَتْ الجملة القرآنية تأثُّر النفس البشرية بما يصيبها من سرورٍ أو حزنٍ، أو لقاءٍ أو فراق، ثم أوضحت من خلال وصفها أن هذا التأثر يختلف من إنسانٍ إلى آخرٍ، على حَسْبِ ما وهب الله–تعالى– لكل إنسان من عواطفٍ ومشاعرٍ.

والذي يتدبر القرآن الكريم، يراه قد حَكى لنا ألوانًا من تأثير الأحزان على جوارح الإنسان من خلال وصف حزن الأب يعقوب على فقدان ابنه نبي الله يُوسف–عليها السلام– ، حيث توقع أن يرافقه هذا الحزن حتى مماته، وحزن "أم موسى –رضي الله عنها– " ذات الفؤاد الفارغ " على ابنها الرضيع نبي الله موسى–عليه السلام– ، إذ الأبناء من أعظم النعم التي أنعم الله بها علي عباده، فنجد حبهم قد جعله الله في قلوبنا حبًا فطريًا لا يضاهيه حب سواه .

ولكن، أتساءل في نفسي فأقول: هل اتفقت عاطفة الأبوين في الوصف القرآني من حيث شعورهما وخوفهما وحزنهما على أبنائهما، وما الفرق بين حزن الأب يعقوب–عليه السلام– وأم موسى–رضي الله عنها– ؟ وأيُّهما أقوي؟ وهل يُفهم من هذا الحزن الشديد أن المفجوع ينقصه الإيمان بالله؟ !! إنها معايير الإيمان لا

(١) إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق : السيد صقر ، ص ١٨٨، ٢٠٠، ط دار المعارف .

يعرفها إلا من لامس الإيمان الصادق شِغَاف قلبه؟!. إنها الاستجابة لله، إنه الحب الصادق لله.

يُولِّد الحزن فينا أحاسيس مختلفة، وكان وصف النظم القرآني لتلك الأحاسيس والمشاعر في غاية الروعة والإبداع البلاغي المعجز المؤثر ، حيث ضمنهما الكثير من أسباب الحزن.

ولا غرو أن نقفَ وقفة بلاغية حيثما يسوق النظم القرآني مشهد حزن الأبوين؛ ليصور العاطفة الإنسانية لدى الآباء نحو الأبناء تصويرًا عميقًا مؤثرًا بليغًا، يشهد بأن هذا القرآن من عند الله﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾، (١) وإذا تأملنا تلك الصورتين لوجدنا:

- **أولًا: وضع الظَّاهر مَوْضِع المُضْمَر.**

لم يذكر النظم القرآني اسم ﴿أُمِّ مُوسَى﴾-رضي الله عنها- وأَبْهَمَهُ، بينما آثر التعريف بها عن طريق كنيتها بأنها ﴿أُمِّ مُوسَى﴾، ومن ثم وضع الاسم الظَّاهر المعبَّر عنه بالكنية موضع المُضْمَر حينما قَرن تلك" الأم" باسم رضيعها الذي سيقت القصة من أجله، (٢) فقال: ﴿وَأَصْبَح فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى﴾ ولم يقل: "وأصبح فؤادُها"، ؛ لما تحمله تلك الكنية من إشفاق عليها من الأهوالِ التي تحيط بها بسبب فقدان ابنها الرضيع.

---

(١) سورة النساء ، آية ٨٢.

(٢) كان لأم موسى ثلاثة أبناء تكبرهم ابنتها مريم ، ثم ولدت هارون -عليه السلام- في السنة التي يتركون فيها الولدان، ثم ولد موسى-عليه السلام- في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك، وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها حملت أحصوا اسمها، فإذا كان وقت ولادتها لا يَقْبلُها إلا نساء القبط، فإذا ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن، وإن ولدت غلامًا دخل أولئك الذبَّاحون، بأيديهم الشفار المرهفة، فقتلوه ومضوا قبَّحَهُم الله،= =انظر تفسير القرآن العظيم "تفسير ابن كثير"، إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، ٦/ ٢٢٢، مكتبة دار التراث ٢٠٠٠م.

حيث أُمرت أمرًا مباشرًا بأن تُرضع ذلك الوليد ما استطاعت لذلك سبيلا، فإن خافت عليه من القتل والذبح ، فلتضعه في التابوت وتلقيه في اليَمِّ.

فكيف يمكن لأمٍ أن تقذفَ بولدها في البحر ؟!! إنها إشارة إلى أنه لا يمكن لعاطفةٍ في الكون أن تتغلب على عاطفة الأم، سوى تلك الأم الصابرة المؤمنة المحتسبة والممتثلة لأمر ربها ووعده إذا وعد.

أما غير ذلك فلا يمكن لأي عاطفةٍ تعلو على مشاعر عاطفةِ الأمومةِ وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدلُّ على عظيم ما وهبَ اللهُ تعالى تلك الأمومة من العواطف والمشاعر تجاه أولادها، والتي جعلَها الله تعالى قرينةً للثقةِ به وبقدرته.

ومن هنا جاء الوصف القرآني بقوله :﴿ أُمِّ مُوسَى ﴾؛ لتتجلى لنا كثرة التفاصيل الذي جاء بها النَّظْمُ وُصُولًا إلى المعنى المراد؛ حيث إنه لم يذكر تلك الكنية سوى لأم موسى –رضي الله عنها– ؛ لبيان الإعجاز البلاغي والنفسي في صبرها وتنفيذها لأمر ربها الذي يفوق عاطفة الأمومة، وهذا فيه تنبيه للمُخَاطَب لكيفية تلقيه لعِظم الأمر، حتى يسكن بداخله فيقرره في وجدانه؛ كي يتمكَّن الإيمانُ من قلبه فضلَ تمكّنٍ.

فذَكَر صفة الأمومة مواساة لها، كما أن تلك الكنية تُبيِّن مدى حنان الأُم على أولادِها، ومدى إشفاقها عليهم، وعليه فإن النظم القرآني لا يفوته أي صغيرة أو كبيرة في ذلك الوصف؛ لذا عبَّر بالاسم الظاهر لما له من دلالة لا توجد في غيره.

كما أن لفظ "الأم" في هذا السياق له دلالة خاصّة، ولاتساع دلالته أُطلق على الأصل الطيب والمقدس لكلّ شيء عظيم، كمكّة المكرّمة فهي "أمّ القرى"؛ لأنها مهبط الرسالات السماوية.

وعلى هذا النَّسَق يُفرّق القرآن الكريم بين الأم والوالدة، حيث يُطلق لفظ "الوالدة" على المرأة التي تنجب الطفل بغض النظر عن الصفات حسنة كانت أم قبيحة كما في قوله: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾.(١)

وإذا تأمنا حديث المولى-ﷻ- عن ذكر اسم يعقوب-عليه السلام- في حالة حزنه نراه آثر التعبير عنه من خلال وضع المضمر موضع الظاهر حينما قال: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾؛ لأن من حب يعقوب لابنه يوسف-عليهما السلام- الشديد أدي إلي كراهية إخوته له، وأظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

لذا وصفوا أباهم بأنه: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وهنا أظهر النظم القرآني سبب عداوة أخوة يوسف له، وكأن يعقوب -عليه السلام- كان سببًا لتوغُّل هذا الحقد في قلوب أبنائه.

ومن هنا كان لوصف مظاهر حزن ﴿أُمُّ مُوسَى﴾ -رضي الله عنها- وَقْعٌ خاص في النفس من خلال وضع الظَّاهر موضع المُضْمَر؛ لبيان مكانة الأم في النظم القرآني، الأمر الذي يؤكد حرص الإسلام على مضاعفةِ العناية بالأم والإحسان إليها، روى الشيخان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله-ﷺ-: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»، متفق عليه.(٢)

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٣٣.
(٢) الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه المؤلف / المشرف: محمد ابن إسماعيل البخاري ، تحقيق: محب الدين الخطيب ،ا لصفحة أو الرقم: ٢٥٤٨.

مع أن كليهما (الأم والأب) أُمِرَ المسلم بالإحسانِ إليهما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ [١] لكن للأم مكانة خاصة؛ لأنها﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾،[٢] وهذا ما عبَّرت عنه الأنماريّة،[٣] عندما فاضلت بين الكمَلة من بنيها ثم قالت: لمّا أبصرت مراتبهم متقاربة قليلة التفاوت" ثَكِلْتُهم إن كنتُ أعلم أيِّهم أفضل، هم كالحَلْقة المفرغَة لا يُدرَى أيْنَ طرفاها".

ويقصد بالحلقة المفرغة الحلقة الدائرية الفارغة من المنتصف، بحيث لا يوجد نقطة بداية أو نهاية لها، وبالتالي من يدور في حلقة مفرغة هو شخصٌ لا يعرفُ من أين يبدأ أو ينتهي.

ومن ثم يتجلَّى لنا الفرقُ الدقيقُ بين وصفِ مظاهرِ حزنِ الأبِ والأمِّ في النظم القرآني من خلال وضع الظاهر موضع المضمر والعكس.

ثانياً: الأساليب الخبرية والإنشائية:

بدأت آية يوسف والتي تدل على بيان مظاهر انفعال حزن الأب على ابنه بالأسلوب الخبري، ثم انتقل بعدها إلى الأسلوب الإنشائي في نفس الآية فقال: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾.

وفي وصف مظاهر حزن الأم على رضيعها آثر النظم القرآني الأسلوب الخبري فقط ولم يلحقه بالأسلوب الإنشائي في نفس الآية فقال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سورة الإسراء، آية ٢٣.
(٢) سورة لقمان، آية ١٤.
(٣) فاطمة بنت الحوثب الأنمارية زوجة زياد العبسي، كان لها سبعة أولاد ذكور من نجباء العرب: فقيل لها يوما: أي أولادك الأفضل. قالت: الربيع.. لا بل عمارة.. لا بل فلان، ثم قالت: ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، انظر التحرير والتنوير مجلد ٧ ، ٢٥/٢٠٠.

وذلك لأن أحداث قصة يوسف-عليه السلام- اجتماعية تعالج مشكلةً في المجتمعِ تتعلقُ بسلوكياتِ تعاملِ الآباءِ مع الأبناءِ، وسلوكيات تعامل الأخوة بعضُهم البعض من منظورٍ بشريٍ، أبطالها الأب يعقوب، والابن يوسف-عليهما السلام-وأخوته، وتدور أحداثها حول الانفعالاتِ النفسيةِ الناتجةِ عن تفضيلِ الآباءِ لبعضِ الأبناءِ.

ومن ثم احتاج المقام والسياقُ وقرائنُ الأحوالِ التجّولَ بينَ أساليبِ الكلامِ بنوعيه الخبري والإنشائي، إذ بدأ بالأسلوب الخبري حسب المعنى الذي يُوحي به سياقُ الكلامِ، فضلا على أنه لأي خبر نُخْبَر به له غرضان رئيسان: فائدة الخبر، ولازم الفائدة.

وقد جاء الكلام لبيان فائدة الخبر: فسياقُ الكلامِ يوحِي بأن العدل مطلوبٌ في جميعِ الأمور الصغار والكبار، ومن ذلكَ مُعاملةَ الوالدينِ للأولادِ، فيكون الغرضُ هنا هو إيصال مضمون الخبر للمتلقي لجهله بالخبر كله.

ويجوز أن يكون السياقُ وقرائنُ الأحوال تقتضي لازم الفائدة ؛ لأن نبي الله يعقوب -عليه السلام- يعلم وجوب عدم المفاضلة بين الأبناء؛ لأنه نبي ومعصوم من الخطأ؛ ولكن لمَّا كانت هذهِ القصةُ من أحسنِ القَصَصِ وأوضحها لما فيها من أنواع التنقلات من حالٍ إلى حال، ومن محنةٍ إلى محنة، ومن محنةٍ إلى منّحةٍ ومنَّةٍ، ومن ذلٍ إلى عزٍ، ومن أمنٍ إلى خوفٍ، ومن مُلكٍ إلى رق، ومن فُرَّقةٍ وشتاتٍ إلى اجتماعٍ وانضمامٍ، ومن سُرورٍ إلى حُزنٍ، ومن رَخاءٍ إلى جدبٍ، ومن ضِيقٍ إلى سَعه.

لذا جاء النظم القرآني بلازم فائدة الخبر ليكتشفها المخاطب عن طريق حديثه عن الانفعالات النفسية وأثرها في نفس المتلقي، من خلال الحال الذي يحيط بالنص القرآني، ومن هنا دلت الجملةُ الخبرية على لازم فائدة الخبر.

وأضرب الخبر بنوعيه يحتمله النص الكريم، ومن ثم جاء النظم القرآني بالجملة الخبرية لإفادة المعنى المراد .

أما الجملة الإنشائية والتي عبَّر عنها بقوله: ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾، جاء بها لما اختلَّ نظامُ الأسرة ووقع ما يكدِّر الصَّفْو ويعكِّر طعم الحياة، وهذا ما حدث ليعقوب-عليه السلام- وبَنِيه، نتيجة التفريق في المعاملة بين الأبناء.

ومن ثم انتقل إلى الأسلوب الإنشائي المعبَّر عنه بأسلوب "النداء" والذي تضمن معنى الندم والتحسر؛ لبيان الحذرَ من شُؤْم الذُنوب فكم من ذنبٍ واحدٍ اسْتَتَّبعه ذُنُوبٌ كثيرةٌ! ويظهر ذلك عندما أراد أخوة يوسف-عليه السلام- التفريقَ بينهُ وبين أبيهِ، وهذا ذنبٌ عظيمٌ ترتبَ عليهِ ذُنوبٌ كثيرةٌ من الكذبِ وإلقاء يوسف-عليه السلام- في غيابات الجب، فالمعصية تتبعها معصية، والطاعةُ تتبعها في الغالبِ طاعة، وهذا دليلٌ على بركةِ الطاعةِ وشُؤمُ المعصيةِ.

وهكذا كان وصف النظم القرآني لمظاهر حزن يعقوب على يوسف -عليهما السلام-، عن طريق سرد قصة اجتماعية سياسية اقتصادية دينية، صاغ النظم الكريم جميع انفعالاتها من خلال أساليب الكلام المختلفة.

أما قصة﴿أم موسى﴾-رضي الله عنها- فأحداثُها من منظورٍ إلهي، وأبطالُها الأم ووليدها الرضيع، والقدرة الإلهية التي قدّرت تلك الأحداث، والتي تدل على غلبة أمر الله وقدرته على كل المقدَّرات، وتحقيق وعد الله الذي وعده لأم موسى-رضي الله عنها-.

لذا آثر الجملة الخبرية[1] في وصف مظاهر حزنها؛ لأنها تدل على الهدوء والسكون، الذي يتناسب مع الزمن الذي ذكره الفعل ﴿أَصْبَحَ﴾، والجو النفسي

(١) لأن الخبر هو:" ما تقصد فيه المطابقة بين النسبة الكلاميّة والنسبة الخارجيّة أو يقصد عدم المطابقة بينهما، و يكون الإخبار به عن نفسك أو عن غيرك فالجملة خبرية لفظا ومعنى. انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ،١/ ٣٨، مطبعة الحلبي ١٩٩٩م، وفصول من علم المعاني د/ هلال عطاالله عثمان ص٦٩ ،مكتبة الرشد ط /١ ، ٢٠٠٤ م .

الحزين أيام الرَّضاعة وذكرياتها عندما كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها لتخبئه خوفًا عليه من فرعون وجنوده.

والبداية الخبرية للآية الكريمة فيها تدفقٌ في المعاني، وحشدًا من الصور التي تتنامى شيئا فشيئا، فتحرِّك المشاعرَ وتوقظُ الإحساسَ وتجعل المتلقي يتفاعل مع كلامه جسدًا و فكرًا، والغرض من الخبر إظهار الحنين والشَّوْق، وأيضا بيان مظاهر حزنها لغياب رضيعها ، لذلك كان وصفُ حزنها أشد وقعًا من وصف حزن يعقوب على بنيه-عليهما السلام-.

ثالثًا : دلالة اسم الفاعل.

آثر النظم القرآني استخدام اسم الفاعل في وصف مظاهر حزن الأم في قوله تعالى: ﴿فَارِغًا﴾ لدلالته على الاستقبال، وجاء بهذه الصيغة للتأكيد على علاقة ﴿أم موسى﴾-رضي الله عنها- بولدها الرضيع، ومن ثم أصبحت تتلهَّف عليه شوْقًا بعد أن كانت مصاحبةً له، وإن كان لقاؤها به محقَّقًا بفضل وعد ربها لها، إلا أن عقلها فرغَ من كلِّ ما حولها ما عدا التفكير في ولدها .

كما دلّ اسم الفاعل أيضًا على الهيئة التي كانت عليها تلك الأم المكلومة، وهي الهيئة التي تكون عليها كل أم في تلك الحالة .

والفراغ يحمل معنى الخوف الناتج عن الخُلْوَةِ التي أصبحت فيها تلك الأم الحزينة، ومن ثم فهيئة الفراغ مخيفة لصاحبه.

وإذا نظرنا إلى الدلالة التعبيرية لتلك الكلمة لوجدناها احتوت على معنى الوحشة والظلمة الملازمتان للمكان الخالي من سُبل المعيشةِ.

وإذا كانت دلالةُ الكلمةِ تشمل تلك المعاني ، فما بالُنا بهيئة حاملها؟ وما مدى تَصَوُّرِنَا لهيئة تلك الأم المسكينة؟ ومن ثم آثر النظم القرآني اسم الفاعل لإضافة دلالة الثبوت على معنى الفراغ .

ويدرك الرحمنُ تلك العاطفة التي جُبِلَت عليها تلك الأم؛ ليُرسِّخَ في وُجْدَاننا تشويق، وكأننا نقول كيف أصبح فؤاد أم موسى-عليه السلام- بعد أن حملته وهنًا على وهن، وأرضعته، وتعلَّق قلبُها به، وبعد ذلك امتثلت لأمر الله تعالى وألقت وليدها في اليَمِّ.

ومن ثم جاء النظم الكريم بقوله: ﴿ فارغًا﴾ لدلالة اسم الفاعل على الفعل وصاحبه؛ ليوضح الأمر أتم توضيح، وهو أن سبب تغيير فؤاد ﴿أمِّ مُوسى﴾هي مشاعر الأمومة التي فطر الله تعالى الأُمّ عليها.

رابعاً: التصوير البياني بين "بياض العين وفراغ الفؤاد وربط القلب".

عبَّر النظم القرآني عن مظاهر حزن الأب عن طريق الكناية فقال: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ فبياض العين كناية عن العمى كما سبق آنفًا.

ولكن عندما عبَّر عن مظاهر حزن الأم جاء بمظاهر الانفعال الباطنة المعبَّر عنها بلفظي "الفؤاد" و"القلب" معًا، فوصف الفؤادُ بالفارغ ، ووصف القلب بالربط فقال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ وقال: ﴿ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾.

ولكنّ النظم القرآني لم يذكر لماذا أصبح هذا الفؤاد فارغًا ؟ بينما ذكر لماذا ربط على قلبها ؟ لتكون من المؤمنين ؛ ومن ثم احتملت الآية معاني ترجع إلى محتملات متعلق الفراغ ؛ لذا اختلف المفسرون في ذلك ، ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين: ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جأشها ، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها بسبب عاطفة الأمومة .

فأما ما يرجع إلى الناحية الأولى فهو أنه فارغ من الخوف والحزن ، أي معناه فراغ الفؤاد من كل شيء سوى الله تعالى ؛ لأن الله هو الذي ألهمها أن تلقي بوليدها في اليَمِّ وهي موقنة بوعد الله لها ، فلما ألقته صار قلبها فارغًا لا

ينشغل إلا بربها ووعده، وهذا تمام اليقين في وعد الله تعالى، وليس الفراغ التفكير والانشغال بوليدها؛ لأن هذا يتعارض مع إيمانها ووعد ربها.

لذا أصبحت واثقة بحسن عاقبته تبعا لما ألهمها ؛ لذا أردف وصف هذا الفؤاد الفارغ بالثناء عليها، في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن ذلك الربط من توابع ما ألهمها الله من أن لا تخاف ولا تحزن.

والمعنى: " أنها لمَّا ألقته في اليَمِّ كما ألهمها الله زال عنها ما كانت تخافه عليه؛ لأنها لما تمكنت من إلقائه في اليَمِّ ولم يشعُر بها أحد قد علمت أنه نجا ، وهو تفسير أبي عبيدة ، والأخفش، والكسائي ، وهذا أحسن ما فسرت به وهو من معنى الثناء عليها بثباتها".(١)

أما ما يرجع إلى الناحية الثانية فهو أن فؤادها فارغًا من كل شيء إلا ذكر رضيعها -عليه السلام-، وفي هذا شيء من رباطة جأشها إذ فرغ لبها من كل شيء إلا تفكيرها في ابنها.

وانشغال تفكيرها بابنها لا يتعارض مع إيمانها ووعد ربها لها؛ لأن عاطفة الأمومة قد سيطرت عليها؛ لذا كان النظم القرآني دقيقًا عندما قال لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾(٢) فجمع بين انفعال الخوف والحزن ؛ لأن عاطفة الأمومة تتحكم فيها انفعالات الخوف والحزن معًا بحكم طبيعتها على أي عاطفة أخرى ، فحزن الأم يختلف عن حزن الأخت والزوجة والأب ؛ لذا آثر النظم القرآني إظهار تلك العاطفة عندما وصف الفؤاد بأنه "أصبح فارغًا"؛ للربط على "قلبها" بالثبات والصبر لِعِلَّة يريدها، ألا وهي ؛ لتكون من المؤمنين.

وهذا فيه وصف دقيق لعاطفة الأم ومشاعرها التي تفوق أي عاطفة أخرى، وليس معنى ذلك ضعف إيمانها؛ لأنه اجتباها بهذا الابتلاء ليقوي إيمانها،

(١) انظر التحرير والتنوير مجلد ١٠ ، ٢٠/ ٨٢.
(٢) سورة القصص ، آية ٧.

وهذا التفسير يقتضي الجمع بين الثناء عليها بحسن ثقتها بالله والإشارة إلى ضَعف عاطفة الأمومة المتمثلة في تشوُّقها إلى رؤية وليدها للاطمئنان عليه لأنه في قبضة فرعون وجنوده .

وكيف لا ؟ وعن أَنَسٍ -رضي الله عنه- قَالَ: ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: ((يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ﴾.(١)

وفي حديث عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أنها قالت: يا رسول اللَّه، إنك تُكثر أن تدعو بهذا الدعاء؟ فقال -ﷺ-: ﴿ إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ عز وجل فَإِذَا شَاءَ أَزَاغَهُ، وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ ﴾.(٢)

وقوله: ((إن قلوب)) تعليلاً لسبب دعوته -ﷺ- وهي أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه، من يشأ يضللْه، ومن يشأ يهديه.

فمن بديعِ بلاغةِ القرآن، وحسنِ نظمهِ أن جاء بلفظ ﴿فَارِغًا﴾ في تصويره لفؤاد تلك الأم على سبيل الاستعارة التصريحية والتي بلغت حَدَّ الإعجاز، حيث جاءت للمبالغة في عدم التحكم، فشبَّه فؤاد أم موسى في حالة حزنها على ابنها، وفراغ عَقْلِها من جميع أمور دنياها، بفراغ المكان مما يحتويه، بجامع عدم

---

(١) الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن، برقم ٢١٤٠، وأحمد، ١٩/ ١٦٠، برقم ١٢١٠٧، ومصنف بن أبي شيبة، ١١/ ٣٦، برقم ٣١٠٤٤، وشعب الإيمان للبيهقي، ٢/ ٢٠٩، ومسند أبي يعلى، ٦/ ٣٥٩، والمختارة للضياء المقدسي، ٢/ ٤٥٨، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، برقم ٢١٤٠.

(٢) مسند أحمد، ٤١/ ١٥١، برقم ٢٤٦٠٤، وسنن النسائي الكبرى، كتاب صفة الصلاة، الاستغفار بعد التسليم، ٤/ ٤١٤، برقم ٧٦٩٠ من حديث النواس بن سمعان، وسنن ابن ماجه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، برقم ١٩٩، ومستدرك الحاكم، ١/ ٥٢٥، وصحيح ابن حبان، ١/ ١٣٥، والأسماء والصفات للبيهقي، ص ٣٢٢، وهناك روايات عن أم سلمة ، وعن سبرة بن فاتك الأسدي، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، برقم ١٦٥، وغيره.

وجود الأثر في كل، ثم حذف المشبه واستعار لفظ المشبه به "فرغ" ثم اشتق منه اسم الفاعل بمعنى فارغ .

فكأن هذا الفراغ كان بمثابة خرق كبير في قلبها، بل في نفسها، إذ لا تشعر بشيء سوى هذا الفراغ ، فكأنها تتحسّس بيدها ، تبحث عن مصدر الدّاء، وتلوحُ بها يُمْنة ويُسْرة ، وتُقلِّب أصابعها، تفرُكها بلطفٍ عسى أن تمسك شيئًا ملموسًا يشفي فؤادها، ولكنها لا تجد شيئًا.

ومن ثم فالصورة الاستعارية قد شَخَّصَت وَقْعًا في النّفس لا يعرفه إلا من أحسّه، وَقْعُ فَقْدِ الولد على قلب أمّه وليس بيدها حيلة، فتعتريها تلك الأحاسيس المتضاربة فتجتذبها في كلِّ اتجاهٍ، حيث تسري الرّعشةُ في ذاتها، وتمور الأرض من تحت قدميْها، وتنظر يمينا ويسارًا فلم تجد إلا الفراغ ، حقًا إنها عُزلة قاتلة، وَوِحدة كئيبة ، وفراغ يلفُّه الفراغ !!.

ومن خلال تلك الصورة الاستعارية ندرك كيف يصبح الفؤاد فارغًا ؟ ولمَ؟ وما شفاؤه؟ ومن منّا يستطيع تذُّوق هذا الموقف؟ ومن منَّا يستطيع تفسيره ؟ إنها حالة شعورية في الحس والوُجدان، تعبِّر عن الضياع، عن الفَقْد.

لكن أيًّا من هذه الكلمات لا تبلغ ذلك الوصف التصويري ﴿فَارِغًا﴾ إنه أصدق إحساس وأبلغ تعبير، بل إنه إعجاز في التعبير عمَّا يدور بخلجات النفس المكنونة!!.

ومن ثم جاء النظم القرآني بوصف الحالة الشعورية والنفسية لتلك الأم؛ لبيان مدى احتراق فؤادها وبيان حالة الاضطراب النَّفسيّ الذي أصبح يلازمها، حتى وصلت إلى صورة فقدان العقل فأصابها الذهول لدرجَةِ أنها لا تلتفت إلى ما قد يصيبها ويصيب ولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها وأذاعت سرِّها، هذا هو المتصوَّر مِن التي تعيش تلك الأجواء النفسيّة الخانقة.

كل هذه المعاني دلَّت عليها الاستعارة التصريحية التبعيّة، في مقطع صغيرٍ، بلغ أرقى مراتب الإحساس، وبلغ مرتبة الإعجاز في التعبير!، وذلك لأن الناظم هو مُثبِّت القلوب العليم الخبير، – سبحانه وتعالى – .

ويكمُن جمال الاستعارة في تشخيص صورة الفراغ وإخراجها من صورة المعقُول إلى صورة المحسُوس ؛ لبيان مدى تأثير ذلك الفراغ على فؤاد أمّ موسى–رضي الله عنها– ، حيث كان بمثابة الآمر الناهي الذي يتحكم فيها حتى أصبحت لا تفكر في أي شيء سوى رؤية ابنها، دون النظر إلى عواقب الأمور؛ لأن قلبها محترقا مشتعلا بالأنين عليه وبالحنين إليه.

ولكي تجري الأمور كما خطَّطت لها يد القدرة الإلهية؛ ولأجل حفظ هذا الوليد الواقع في يد الفرعون، فإن الله ربط على قلبها، فربط عليه من كل هَمٍّ وغَمٍّ واضطراب؛ لذا قال سبحانه :

﴿ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾

فأعقب صورة فراغ الفؤاد بصورة استعارية أخرى في قوله: ﴿ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ جاءت لبيان أن الصَّبر وانشراح الصَّدر مَرَدَّهُ إلى القدرة الإلهية التي أودعها سبحانه وتعالى على قلبها.

والرَّبط على القلب يقتضي الكتمان، بحيث لا يصلح أن تبدي به ولو فعلت هذا لتسرب الخبر؛ لأن الخبر مكتوم مالم يَظْهَر، فإذا ظهر لواحد ،

فَثِق بأنه سيتشعب، فلو أبدته – ولو لأقرب الناس إليها– لظهر أمر الطّفل وعُلم به ، ولكن الله – ﷻ– ربط على قلبها ، والربط معناه شدُّ الرِّباط بإحكامٍ على قلبها.

وآثر لفظ ﴿رَّبَطْنَا﴾ لأنه أبلغ من قوله في غير النظم الكريم :" ثبَّتنا قلبها"؛ فالربط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التي يتدخل فيها النزاع الداخلي في

النفس ، فربْطُ القلب هنا يفيد عدم انجرافها وراء الأهواء المحيطة بها ،أي : جعل قلبها لا يتحرك لأي مشاعر وُجْدانيّة كعاطفة الأمومة التي سيطرت عليها.

ومن ثم ربط الله تعالى على قلبها عن طريق الاستعارة التصريحية التبعيّة حيث شبَّه التقوية بالسّكينة والطمأنينة والصَّبر في الشدائد بربط الإنسان لحزْمة الحطب وغيرها، بجامع التحكم في كل، ثم حذف المشبه واستعار لفظ المشبه به وهو الرباط للمشبه، ثم اشتق لفظ ﴿رَّبَطْنَا﴾ على سبيل الاستعارة التصريحيّة التبعيّة وهي استعارة مرشَّحة؛ لأنه ذُكِرَ فيها ما يلائم المشبه، أي ربط الله على قلبها بالصّبر فألهمها إيّاهُ وقوَّاها .

ومن ثم آثر لفظ "القلب" في تلك الاستعارة ، والذي جاء بمعنى العقل؛ لبيان أن فؤاد أمّ موسى أي : عاطفتها، كانت فارغة من كل شيء إلا من التفكير في أمر رضيعها ، فليس فيه شيئًا سوى ذكر موسى-عليه السلام- ، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية التي وضعها الله تعالى في فؤاد الأم ؛ ولكن آثر من جانب آخر ذكر قلبها والذي جاء بمعنى عقلها ليربط عليه بتثبيته ؛ لأن الأمور العظيمة التي تنزل بالمرء تُنسيه كلَّ شيء.

ومن أجل ذلك جاءت الاستعارة في قوله :﴿ رَّبَطْنَا﴾ ؛ لأن الإنسان مفتقر إلى الله تعالى ، ولولا معونته ما فعل شيئًا، فلا صبر على البلاء ، ولا شكر عند الرخاء، إن لم يربِط الله على قلوبنا، وتكمُن بلاغة الاستعارة هنا في دلالتها على كل هذه المعاني السابقة.

إذْ تُمثِّل تلك الصورة مثالا للقدرة الإلاهية التي تتحكم في مقدَّرات الأشياء فـــ { يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ }.(١)

(١) صحيح سنن الترمذي المؤلف ،محمد ناصر الدين الألباني تحقيق: زهير الشاويش الصفحة أو الرقم: ٣٥٢٢، مكتب التربية العربي لدول الخليج ط/١، ١٤٠٨هـــ.

ومن ثم أسند الربط إليه -ﷻ- بـــ " ضمير المتكلم" للتعظيم، وإسناد الربط إليه-ﷻ- يدل على الاختصاص، أي: أن هذا العمل لا يقوم به سواه ؛ لذا لم يأت بصفة من صفاته-ﷻ- ، كما لا يصح أن نشتق لله اسمًا من الفعل المسند إليه : ﴿ رَبَطْنَا﴾ فنقول الرابط ؛ لأن كل شيء في الكون هو من فعل الله -ﷻ- ومن تقديره ، إذ الفعل يختلف عن الاسم .

لذا آثر "ضمير المتكلم"؛ لتثبيت قلب أُمّ موسى وهي في تلك الحالة، فكأنه -ﷻ- يقول أنا من سيتولَّاكِ في تلك الحالة، فهو يُطَمْئِنُها ؛ لأنه حكيم عليم بهذه القلوب ويعلم ما يُفسِدُها وما يُصلِحُهَا، وهذا يتناسب مع معنى الاطمئنان والتثبيت التي تريد الاستعارة توضيحه.

ومن ثم اصطفى النظم القرآني التعبير بحرف الجر﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ عَلَى قَلْبِهَا﴾ دون قوله: "ربطنا قلبها "، لما في الأسلوب من دلالة على استقرار هذا الاطمئنان والاستمرار عليه.

وتَكْمُنُ فصاحة هذا الحرف أن فيه دلالة على أن ﴿ أُمّ مُوسَى ﴾ شرح الله صدرها بالاطمئنان على رضيعها، وقد استعلى هذا الاطمئنان على قلبها، وتمكن منه، فكأنه راكبٌ على جَوادٍ يَصْرِفَه حيثما شاء؛ وذلك لبيان مزيد قوة التثبيت بالصبر والإيمان، وسطوع البرهان، كل ذلك فُهِمَ من دلالة الحرف "على" الذي يفيد الاستعلاء، ولو قال في غير النظم الكريم "ربطنا قلبها" لذهب جمال هذا المعنى.

سُبْحَان الله العظيم!! القلب الذي يُفْتَرض أن يشتعل ويَحتَرِق ويضطرب ويحن ويئن يجعله الله جامدًا ساكنًا مطمئنًا؛ لذا وصف المولى-ﷻ- الدّواء في كلمةٍ جامعةٍ مانعةٍ تَضْرِبُ مثلا في الإعجاز، حيث تعبّر عن حالة الاستقرار بعد الاضطراب والوَجْد بعد الفقْد، وهدوء النفس واطمئنانها، وزوالِ الهمّ بعد الحُزْن ، ألا إنّه الإعجاز حقًا!!.

• **الإعجاز النفسي في قوله** : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ .

يَجِبُ أن ننتبه لإعجاز القرآن في هذا الوصف الدقيق، والتوقيت المناسب الذي أُعْلِنَ فيه عن فراغ فؤاد أمّ موسى-رضي الله عنها-، ولهذا أورد الحق تسجيل ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: تذيع أمرها في الناس.

ومن ثم جاءت القدرة الإلهية بقوله: ﴿رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾، وشددنا عليه وثبَّتناه، وأَمْسَكْنَا به من الهُيَام والشُّرود، لكي تتماثل بالصبر.

يؤكد العلماء[1] أن القلبَ يَبُثُّ ويُرْسِلُ المعلومات للدماغ بواسطة الخلايا العصَبيَّة، والدماغ يعطي أوامره للسانِ والعيْنِ والأُذنِ وغيرها من أعضاء الجسم، وهنا ربما نستطيع أن نفهم لماذا ربط الله تعالى على قلب أُمّ موسى.

فالفؤاد هو أعمق نقطة من القلب فهذه المنطقة أصبحت فارغة تمامًا ؛ لأن المعلومات التي تتدفق من القلب إلى الدماغ أصبحت أكثر من أن يتحملها الإنسان، ولكن الله تعالى ربط على هذا القلب برباط مُحْكَم فلم تُبدِ شيئًا ، وأَخْفَتْ ما في قلبها بأن موسى هو ابنها، وهذا التفسير هو محاولة لفَهم حقيقة ما حدث لقلب أُمّ موسى وهو نوع من أنواع تدبُّر القرآن- والله أعلم-.

ومن ثم جاء النظم القرآني بكل هذه المعاني لبيان الإعجاز البلاغي والنفسي، بنظمٍ بديعٍ يقف أمامه الذهن، ويتحرك معه خُطوة خُطوة.

وممَّا يسترعِيَ الانتباه في هذه الآية أن النظم القرآني آثر لفظ "القلب" بعد فعل الربط وفاعله في قوله: ﴿قَلْبِهَا﴾ دون لفظ "الفؤاد" المذكور سابقًا، والسرُّ في توسِعَة مادة "القلب" وجَعْلَهُ مَحَلًّا للتّعقُّلِ والتَّفكُّرِ والتَّذكُّرِ دون "الفؤاد"، هو شدة هذا الاتساع وإفراط كثرته في الفهم الذي فاض من عطاء الله تعالى على تلك الأم، حتى ملأ هذا الفهم عقلها بسبب ربطه بالصبر امتثالا لأوامر ربها، وهذا فيه بيان

(١) سيكولوجية الدافعية والانفعالات، محمد محمود بني يونس،ص١٥٠.

وتوضيح أن ليْسَ هناك مترادفات في اللغة العربية بل كل كلمة تؤدي معناها في موضعها الذي تُستَدعى فيه.

هناك آراء عديدة حول المراد من "القلب"، وهى وإن اختلفت حول ماهِيَة القلب، هل هو العضو المادي أو جهاز إدراكي معرفي؟ فإنها لم تختلف حول كونه مكمن المشاعر والأحاسيس وأنه رأس أعضاء الإنسان وموطن الإيمان والكفر، حيث ذكر أهل اللغة للقلب معان كثيرة، كالعقل واللُّبِّ والفؤاد.(١)

كما ذُكِرَت كلمة" قلب" في القرآن الكريم أكثر من مائة وثلاثين مرة،(٢) بالإفراد والتثنية والجمع إلا أنه لم يقصد بها مطلقًا الدلالة على القلب بمعناه التشريحي الطِّبي، ولكن قُصِدَ بها التعبير عن جهاز إدراكي معرفي؛ لذا سُمِّى القلب قلبًا لكثرة تقلبه.

ومن ثم يتجَلَّى الفرق بين إيثار لفظ "الفؤاد" عندما وُصِفَ بالفراغ ؛ لأنه بؤرة العاطفة الداخلية التي تسيطر على الإنسان، أما القلب فهو موطن التعقُّل والتذكُّر.

كما أن إسناد "القلب" إلى ضمير الغائب في قوله: ﴿قلبها﴾، دليل على أن هذا الربط تمَّ على خير الوجوه وأكملها.

ولكن لماذا عَدَلَ عن الاسم الظاهر في قوله: ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى﴾ إلى ضمير الغائب في قوله: ﴿قلبها﴾؟ العدول دلالة على قوة الانفعال في الحَدَثْ فعندما كانت في قمة الانفعال على فراق ابنها جاء بكنيتها حتى يُذَكِّرها بأنك أنتِ أُمّ موسى، لِيُعْلِمُها بصفتها الملازمة لها في هذا الموقف وهي الأمومة الخالصة، ومن ثم

(١) اللسان ٧/ ٤٦٢.
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٤٩.

قال: "أُمِّ مُوسَى" ولم يقل: "أمُّ هارون"[١] وخاصة أنه في العُرْفِ أن تُنادَى الأم باسم ابنها الأكبر، ولكن هذا فيه خصوصية في الحدث.

خامساً : الطباق الخفي بين ﴿فارغاً﴾ و﴿ربطنا﴾ .

اصطفى النظم القرآني أسلوبين متضادين في معناهما عبَّر عنهم بألفاظ ذي دلالةٍ إيحائيةٍ دقيقةٍ، ومن ثم قال : ﴿فارغًا ﴾ فالفراغ أدق تعبير يُعَبِّرُ به عن حالة الخوف الشديد الذي انتاب فؤاد تلك الأم المَكْلُومَة على رَضِيعها، كما طابقه بقوله: ﴿ربطنا﴾ "والربط" أدق تعبير يعبر عن مدى ذهاب الرَّوْعِ والخوف من ذلك القلب؛ لأنه – سبحانه وتعالى– أعلم بمصادر آلامنا، ويعرف كيف يخففها في الوقت الذي يريده.

والطباق هنا طباق إيجاب خفي غير متجانس؛ لاختلاف المتضادين بين الإسمية والفعلية، وآثره النظم الكريم لإبراز المعنى، وتوضيحه، وتأكيده، وتقويته؛ من خلال بيان الفرق بين الكلمة وضدها في المعنى، فالخوف والاطمئنان لا يتحقق حسنهما إلا إذ اجتمعت فيهما الضدية.

كلّ ذلك أَحْدَثَ جَرْسًا موسيقيًا تُطْرَب له الأذان وتشد انتباه القارئ، ويكمُن سِرُّ جمالهِ في المتعةِ الذهنيةِ الناتجةِ من الجمعِ بين الشيء وضده.

سادساً : أسلوب التوكيد.

لم يأتِ في وصف مظاهر حزن يعقوب–عليه السلام– بأي أسلوب للتوكيد، حيث وصف مظاهر الحزن المتمثلة في بياض العين الجارحة وهذا أمر ظاهر لِلْعَيَان لا يحتاج إلى مؤكدات ليُظهر ذلك الحزن.

---

(١) ولد هارون –عليه السلام– في السنة التي يُتركون فيها الولدان، وولد موسى–عليه السلام– في السنة التي يُقتل فيها الولدان، وكان لفرعون أناس موكلون بذلك. انظر تفسير ابن كثير٦/٢٢٢.

أما عندما تحدث عن مظاهر حزن أُمّ موسى- رضي الله عنها-، استدعى المقام والسّياق وقرائن الأحوال بعض المؤكدات التي تَظْهَر من خلالها مظاهر ذلك الحزن الباطني، إذ جعل مظاهر حزنها في الباطن حتى لا يظهر لِلْعَيَان ؛ لأن في ذلك هلاك لها ولابنها، ومن ثم قال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن﴾.

فجاء بالجملة الاستئنافية والتي كانت بمثابة "عطف البيان"،[١] ومن ثم فصل جملة ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾، عن جملة ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ لكمال الاتصال، حيث جاءت الجملة الثانية موضّحةً ومبيِّنةً للجملةِ الأولى؛ لِيظْهَر من خلالها أن الدنيا تضيق في عينيها لعدم رؤية ولدها.

ومن ثم جاء الخبر مؤكدًا بـــ : ﴿إن﴾ مخففة من الثقيلة؛ [٢] لئلا تلتبس بـــ (إن) النافية، تقريرًا لمضمون الخبر، وتأكيدًا له، وقد أثبت الخبر المؤكد بأن تلك الأم التي تم حذف اسمها قاربت من فراغ فؤادها بأن تُبدي بأنه ولدها، وفي توكيد هذا الخبر جَزْمًا قاطعًا لسبب ربط قلبها؛ لأنَّ كِتمانَها لِحُزْنِهَا كان نتيجة خوفها على رضيعِها.

- دلالة ﴿كَادت﴾ في وصف حزن أم موسى-رضي الله عنها-.

اللغة هي أداة صلة ووسيلة تفاهم بين الناس، وطريقُ من طرق الإقناعِ، يلجأ إليها المتحدثُ عند إرادةِ التعبيرِ عمَّا يجولُ بخاطره، ومن ثم اصطفى النَّظْمُ القرآنيُّ لفظُ ﴿كَادت﴾؛ وهو فعلٌ مساعدٌ يُعطي معنى أن الفعل حين يبدأ يتوقف ولا يكتمل ولا ينتهي إلى غايتهِ ونهايتهِ، فدلالةُ الفعل دلّت على أنه يستمر ويقترب من نهايته ولكنَّ استمرارَه يكونُ لمدةٍ مجهولةٍ.

(١) التحرير والتنوير مجلد (١٠) ، ٢٠/ ٨٢.
(٢) إعراب القرآن الكريم المجلد الثالث ٢٠/١٦٩٧.

ولكن بدخول ﴿إِن﴾ المخفَّفة على الفعل الماضي ﴿كَادَتْ﴾ يتشكل تركيبٌ لفظي جديد، يسمح بدخول فعل آخر وهو: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾؛ هذا التركيبَ اللفظي يُعطي معنى أن الفعل بدأ ولكنه توقف ولم يكتمل ولم ينته إلى غايتهِ ونهايته.

وذلك لأن استعمال (كاد) في الإثبات يدل على مقارَبَة وقوع الفعلِ في الحال،[١] ويُفْهَم من ذلك أن تلك الأم المكلومة قاربت أن تَصِيحَ وتُظهرَ ما حدث لموسى-عليه السلام- وتنطقُ باسمه من كثرة تردد ذكره في نفسها فمقاربة الصياح ثابتة، والكلام نفسه منتفيًا.

وجاء هذا الخبر مؤكَّدًا "بأن" ودلالة الفعل "كاد" على سبيل المبالغةِ المقبولة؛ حيث جيء بهما لمقاربة الصُّورة من أجل وصولِ الوصفِ لغايتهِ.

فالجملةُ الخبريةُ المؤكّدةُ إذن جارية على اللغة الفصحى؛ لأن "كاد" ناسخة، و"اللام" في ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾، جائزة غير لازمة، ولو حذفناها في غير النظم القرآني وقلنا: " إن كادت تبدي به" تكون هنا بمعنى "ما" ، أي: ما كادت تبدي به وهذا غير مقصود، وهذا بعيد عن القصة، وبعيد عن المعنى؛ لأن السياق يدلُّ على أن المعنى أنها قربت من إبدائها بالتلفظ باسم ابنها، وليس النفي، إذن فالمانع من كونها نافية اثنان:

- **الأول** : مانع لفظي ، وهو وجود اللام.
- **الثاني** : مانع معنوي ؛ لأن المعنى أنها كادت تبدي به، ومن ثم جاء بربطِ قلبها، والربطُ يقتضي أنها لم تبدِ بعد؛ لذلك فـ "اللام" وجب ذكرُها لأن حذفَها يوُقع في الإشكال.[٢]

(١) النحو الكافي ، أيمن أمين عبد الغني ، ٢/ ٣٠٠، الدار التوفيقية للتراث، القاهرة.
(٢) تفسير القرآن الكريم، سورة القصص، محمد بن صالح العثيمين ص ٤٢: ٤٦، بتصرف ، ط/ ١، ١٤٣٦هـ، دار الدُّرة للنشر.

وسميت "اللام" فارقة؛[١] لأنها وقعت بعد (إن) المخففة من الثقيلة؛ لتكون رمزًا للتخفيف، وذلك لبيان الفرق بين "إن" المثبتة والنافية؛ لأن "لام " التوكيد لا تأتي مع (إن) النافية.

وآثرها النظمُ القرآنيُّ لتوكيدِ مضمونِ الجملةِ؛ لأن "اللام" أحد حروف المعاني الدالة على معنى في غيره ، كبقيةِ حروفِ المعاني الأخرى، ولكنَّهَا هنا غير عاملة، فهي حرفٌ من حروفِ المعانيِ الدالةِ على معنى في نفسها.[٢]

و"لام" الابتداء دخلت هنا على الفعل المضارع، فاستخدمت لما حل في موضعها من المضارع، حيث خلصته إلى الحال فـ ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: بداية إعلانه، وكشفه وظهوره .

ولكن لماذا آثر النظم القرآني قوله: ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ دون "لتظهر به" ؟ الفعل ﴿تُبْدِي﴾ يدل على التفاعل النفسي الداخلي، فما زال الأمر بداخلها تخاف أن يظهرَ على جَوارِحِها، إن كادت من شدة وُجْدِها وحزنها وأسفها لَتُظهر أنه ذَهَبَ لها ولد، فَتُحدِّث الناس عنه وتُخْبِرهم بحالها.

وهنا تناسبت مادة الفعل ﴿تُبْدِي﴾ مع الحوارات النفسيَّة التي تحدثُ بداخلها؛ لأن "الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وُجْدانٍ وعاطفةٍ"،[٣] ومن ثَمَّ يريد التحدّثَ عنها؛ لأن المعروفَ أن الإنسانَ إذا حزن، فإنه يريد أن يُخَفِّف من آلام الحُزْنِ على نفسه بأنْ يتحدث مع غيره بما يخفيه ويَضِيقُ به صَدْرَه .

فالإبداء يناسب فراغ الفؤاد، كما يناسب ربط القلب ولو قيل: "لتظهره" لخالف السياق والمقام، ولزم بذلك تغييرُ وصفِ مظاهرِ الأحزانِ الباطنةِ إلى التعبير عن مظاهر الأحزان التي تظهر على الجوارح، وهذا غير مقصود.

---

(١) إعراب القرآن الكريم ٣/ ١٦٩٧.
(٢) النحو الكافي ١/ ١٥٠.
(٣) تفسير الشعراوي – الخواطر–، محمد متولي الشعراوي ١٥٠/٤، الناشر: مطابع أخبار اليوم .

ومن ثم فالتعبير بالفعل﴿تُبْدِي﴾ أبْلَغ وأوْفَي في وصف مظاهر حزن تلك الأم التي كتمت حزنها في فؤادها حتى أصبح فارغًا، لولا رعاية المولَى -ﷻ- لصاحت وعرَّضت ولدها للخطر، والذي ترتب عليه مجيء لفظ ﴿رَّبَطْنَا﴾ ليناسب الحالة النفسية التي تمر بها تلك الأم التي تكاد تفقد عقلها لفراق رضيعها.

وآثر الجارَ والمجرورَ في قوله: ﴿بِهِ﴾ إما لتأكيد لصوق المفعول بفعله والأصل : لتبديه ، وإما لتضمين ﴿تُبْدِي﴾ معنى تَبُوح. (١)

ومن ثم حذف المسند إليه لضيق الصدر والتقدير: "هي" ، والحذف هنا وافق سياق المقامِ حيث استدعاه الحالُ، إذ من كانت في هذه الحالة فصدرها يَضيق بما فيه، فوصفُ حالها يقتضي حذفَ اسمِها أو ضميرها ؛ لاكتمال صورة فراغ الفؤادِ وربطِ القلبِ، ومن ثمَّ أفاد حذف المسند إليه غرضه البلاغي، فيا سبحان الله إنه فعلا قرآنٌ مُعجِزٌ!!.

ومن هنا أردف قوله: ﴿لِتُبْدِي بِهِ﴾ بـــ ﴿لَوْلَا﴾ الشرطية ، إذ إنها حرف امتناع الامتناع ، يدل على ما كان سيقع لوقوع غيره، أي : لِما كان سيقع أن ذكرت اسمه في الماضي بأن تبدي به، لوقع غيره في الماضي أيضًا أي: لو فعلت ذلك لهلكت وهلك رضيعها.

ومن ثم عبَّر بـ ﴿لَوْلَا﴾ الشرطية؛ لأنها حرف امتناع، وأردفها بالجملة الإسميةِ في قوله: ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾؛ (٢) على سبيل التخصيصِ أي أن هذا الربط من اختصاصِنا، أي ربطنا على قلبها بخَلْق الصبر فيه، إذ تكمن في هذا القدرة الإلهية، أو على سبيل العرض، أي نعرض لكم صورة الصبر التي أصبحت عليها بسبب تثبيت قلبها، ونزع الاضطراب منه، وكلاهما حَسَنٌ يقتضيه المقامُ.

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١٠، ٢٠/ ٨٢.

(٢) ﴿أن﴾ مصدرية، ﴿رَّبَطْنَا﴾ فعل ماضي مبني، و"نا" فاعل، ﴿عَلَى قَلْبِهَا﴾ جار ومجرور متعلق بـــ" ربطنا" و" الهاء" مضاف إليه ، والمصدر ﴿أن رَّبَطْنَا﴾ في محـــل رفـــع مبتـــدأ وخبـــره محذوف أي(لولا ربطنا على قلبها حاصل) ، وجملة (لولا..) استئنافية.

ومن هنا اقتضى المقام والسِّياق حذف جواب ﴿لَوْلَا﴾ الشرطية لدلالةِ جملة قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ عليه، والتقدير: " لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لحصل؛ لأنها "كَادَتْ تُبْدِي بِهِ"، والحذف هنا أدي إلى تأكيد المعنى وتقويتهِ.

وأيضًا حذف خبر "إن" المصدرية وتقديره: "لحصل"؛ لإعمال ذهنِ المخاطَب في ذلك التركيب المُعجز، والذي احتوى على الإيجاز والإطناب والذي تمثل في الحذف والذكر للمسند والمسند إليه وجواب الشَّرط .

كلُّ ذلك أعطى جَمَالًا لمعنى وصف ذلك الفؤاد الفارغ، وبيانًا لسبب الربطِ على العقل " القلب" في تلك المرحلة.

كل هذه المؤكدات احتوت عليها الآيةُ الكريمةُ في وصفِ مَظَاهِر حزن الأم، بينما لم يستخدم النظم القرآني مثل تلك المؤكدات لوصف مظاهر حزن الأب المتمثل في صورةِ حزنِ يعقوب على ابنه يوسف-عليهما السلام-.

فيالها من تأملاتٍ بلاغيةٍ معجزةٍ يتخلَّلها الإعجازُ النفسيُّ والانفعاليُّ الذي احتوت عليه مظاهر تلك الأحزان.

أما قوله تعالى : ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هنا أراد المولى -ﷻ- أن يُظهرَ سبب ربط قلب تلك الأم المكلومة بقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فجاءت تلك الفاصلةُ مناسبةً لدلالةِ التخصيصِ الذي في الآية، فالفاصلة جاءت في كلمة ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي لفظة مخصُوصَة تدل على نوعٍ معينٍ من النَّاسِ- فناسَب تخصيصُ الفاصلة تخصيصَ ربط قلب أُمّ موسَى لامتثالها بإلقاء ابنها في اليَمِّ .

ومن ثم اصطفى النظم القرآني " لام " التعليل، في قوله : ﴿ لِتَكُونَ﴾، والمعلَّل ربطُ القلب، أي : ربط الله على قلبها لهذه الغاية.

والكَوْن هنا يُفِيدُ مَعْنَى الدَّوَامِ والاسْتِقْرَارِ، ومن ثم عبَّر عنه بالفعل المضارع، أي نُثَبِّتُها لِتَصْبِر ولا تُبدي به، لِتنالَ رتبة المؤمنين بأمر الله تعالى، فلولا أن ذكَّرناها بما وعدناها، لِمَا نالت تلك الدرجة.

ولوضوح الفعل حُذِفَ المسند إليه والتقدير: "هي"، ومن ثم جاء بـ ﴿مِن ﴾ التي تفيد التبعيض؛ لدلالتها على اقتطاع جزءٍ من كلٍ، أي تكون ممن ثَبَّتَهُم الله تعالى على الإيمان بتماسكها بالصبر .

و"اللام" في قوله: ﴿المُؤْمِنِينَ ﴾ للعَهْد العِلمي، ويقال له: العَهْدُ الذِّهْني: وهو أنْ يَتَقَدَّم لِمَصْحوبِها عِلْمٌ فُهِمَ من قوله: ﴿رَبطنا﴾، وليس المراد الإيمان الجديد؛ لأنها مؤمنة بلا شكٍ ، وأَدَلُّ دليلٍ على إيمانِها، أنها ألقت بابنها في اليمِّ ثقةً بوعدِ ربِّها -ﷻ-، ولكن المراد هنا الإيمان الزائد على أصله، المراد به التثبيت واليقين .

وقد يفيد الربط مع ذكر الإيمان هنا عدم تحول القلب عن ذكر الله ورؤيته، وهو مرتبة عليا من مراتب الولاية ، فمن رُبط على قلبه فهذه شهادة تؤكد بأنه لن يضل ولن ينحرف، وأنه سيثبت مع الذكر والطاعة لرب العالمين ، فهنيئًا لمن ربط الله على قلبه ؛ ليضمن عدم التقلب والتحول عن طاعة الله وذكره.

فإن العبد إذا أصابه مصيبة، فصبرَ وثبتَ، ازداد بذلك إيمانه، ودلَّ ذلك على أن استمرار الجَزَع مع العبد دليلٌ على ضَعْفِ إيمانه .

وهنا لطيفةٌ بلاغيةٌ لماذا آثر النظم القرآني جمع المذكر السالم في قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل : "لتكون من المؤمنات " ؟ حيث المقام والسياق يتحدث هنا عن مظاهر حزن أُمّ موسى-رضي الله عنها- ، هذا دليل على أن الإيمان أشمل من أن يُخَصَّصُ به جنسٌ دون سواه، ويؤكد ذلك مخاطبته النظم القرآني لمريم -رضي الله عنها- ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ ؛ وحديث رسولنا الكريم-ﷺ- :{ كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ }[1]

(١) أخرجه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى قوله :﴿ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ سورة التحريم الآيات ١١، ١٢. رقم (٣٤١١) ومسلم : كتاب فضائل الصَّحابة باب فضائل خديجة أم المؤمنين – رضي الله عنها- رقم(٢٤٣١).

الخـــــاتمة

وبعد كلِّ تلكَ الأسرارِ البلاغيةِ والنفسيةِ المعجزةِ المُبهرة التي تم تناولُها من خلال بحث "مظاهر الأحزان على جوارح الإنسان في ضَوْءِ القرآنِ الكريمِ"، ها نحن الآن نختم حديثنا، ولكن ماذا يمكن أن نقول ؟ وبم نختمُ هذا البحث الذي لا يمثل إلا بدايةً للتحدُّثِ عن خَلَجات النفس البشرية؟ وكيف لنا أن نوجز ما هُدينا إليه؟ وما ذُكِر إلا غيض من فيض، ونقطة من بحر، وما عسانا إلا أن نقول بإيجاز:

إن القرآنَ الكريم أوسعُ من أن يضيق بأبحاثِ الباحثين؛ فعلومه فاقت الحدّ والعدّ، وما الإعجازُ البلاغيُّ إلا واحدٌ من هذه العلوم التي شغلت العقولَ، فَشَحَذت الهمم لبيانها وإظهار معالمها وخفاياها؛ لأنه فوق طاقة بني الإنسان لما فيه روعة التعبيرِ، وجمال التصوير، وألوان الأدب والتهذيب، إذ ينطوي تحته لطائف وأسرار البيان، ومنه استقينا عظمة التأثير البلاغي في السلوك الاجتماعي من خلال ألفاظه وجمله.

الآيات التي تناولت مظاهر الأحزان على جوارح الإنسان سيقت في أسلوبٍ فذٍ فريدٍ، في ألفاظِها، وتعبيرِها، وأدائِها، وبلاغتِها ، حيثُ جاءت مفعمة زاخرة بالأساليبِ البلاغيةِ على الرُّغْمِ من قِصَرِ تلك الآيات، لكنها تسري في النفس سريان الدم في العروق، وتجري-برِقَّتِها وسَلَاسَتِها- في القلب جريان الروح في الجسد.

ومن ثم وجدنا المشاعر والأحاسيس في القرآن الكريم ما هي إلا انعكاس لصور الأحداث والأشخاص على لوحةِ نفسِ الإنسان، وهذه الانطباعات تَظْهَـرُ على قَسَمَات وجهِه وَعَبْر جوارحهِ وأحاديثهِ وكلامهِ، وهذا ماهُدينا إليـــه مـــن خلال بيان مظاهر حزن من بشِّر بالأنثى والذي ارتبط بسواد الوجـــه، وحـــزن

الآباء على أبنائهم، والذي عبَّر عنه النظم القرآني وربطه بالجوارح من خـــلال بياض عين يعقوب –عليه السلام– ، وفراغ فؤادُ أُمِّ موسى– رضي الله عنها.

أظهر البحث الفروقُ اللغويةُ والبلاغيةُ بين المتشابهِ القرآني في آيتي النحل والزخرف والتي وردتا في وصف مظاهر حزن مَنْ بُشِّر بالأُنثى، إذ يتجلَّى الإعجاز العلمي في المجال النفسي والعصبي للألفاظ القرآنية في معالجة التوترات النفسية والعصبية،(١) مصداقًا لقوله تعالى:﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلُوبُ﴾،(٢) وقوله أيضًا :﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾،(٣) ومن ثم تم اختيار هذا الموضوع ؛ لأنه لا يُمكن تصوُّر صلاحِ القلوب إلا بصلاحِ الأعمالِ، ولا صلاح للمجتمع إلا بصلاح أفراده.

على الرغم من أن الآيتين(٤) اللتين وردتا في بيان مظاهر حزن من بُشِّر بالأنثى وإن كانت من السُّورِ المكية، التي تحمل –في الغالب– طابع الإنذار والتهديد، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان، فجاءت طريَّةً نَدِيّة، في أسلوبٍ ممتعٍ لطيفٍ، سَلِسٍ رقيق، يحمل جوُّ التأثُّر النفسي والغضب وعدم الرضا وعلى الرغم من ذلك احتوى على الرحمة، والرأفة والحنان، عندما آثر ذكر لفظ الرحمن في قوله :﴿ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾، دونَ إيثار أي صفةٍ أخرى من صفاتِ الله– عز وجل–، فعلى الرُّغمِ من البُعد عن البيئةِ الإيمانيةِ الصحِّيةِ لتلك الفئةِ، فالله –سبحانه وتعالى–قد أنشأ لهم بيئة إيمانية تمنع عنهم الهَمُّ وتباعدُ عنهم الأحزان لذكره لفظ "الرحمن" ، إذ أنه قريب منَّا يرحمنا إذا تقلبت مشاعرنا، ما أروع هذا الإعجاز ، وما أمتعه ، وما أرحمه!!

---

(١) الإعجاز العلمي في الاسلام " القرآن الكريم " محمد كامل عبـد الصـمد ص ٣٢٧، الـدار المصرية اللبنانية ، ط/٧، ٢٠٠٦م.
(٢) سورة الرعد، آية ٢٨.
(٣) سورة آل، عمران آية ١٢٦.
(٤) آية رقم ٥٨ من سورة النحل ، وآية رقم ١٧ من سورة الزخرف.

كما نلحظ روعةِ الأداء في وضع الجار والمجرور بالهيئة المخصوصة به، وفي مكانه الخاص الدقيق في الآيتين؛ ليؤدي المعنى المطلوب ، حينما قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى﴾ وقال في سورة الزخرف: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾، ولو تمعَّنَّا النظر في الحِكمةِ المقصودةِ من إيثار الجَارِّ والمجرورِ بصريح القول ﴿بِالأُنثَى﴾، والتعبير عنها في الموضع الآخر بالكناية في قوله : ﴿بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً﴾؛ والذي فُهِم من خلال مدلولِها "أن الله نهاهم أن يضربوا له الأمثال وهذا فيه عَوْدٌ إلى إبطالِ أنواع الشرك"،(١) لوجدنا فرقًا كبيرًا وبونًا شاسعًا بين المعنيين، وقد تم التفريق بينهما من خلال التفننُ والتميزُ لموقع الجارّ والمجرور في الآيتين المتشابهتين ، ومن خلال ذلك التفنن اختلف المعنى بينهما اختلافًا تامًا.

إنّ اختيارَ المفردةِ في القرآن الكريم وبناءها على هيكليةٍ معينةٍ، إنّما هو قائمٌ في المقامِ الأولِ على المعنى المُتَوخَّى من السِّياق والمَقَامِ وقرائنِ الأحوال؛ لذا آثر النظم القرآني لفظُ ﴿مُسْوَدًّا﴾، بهيئته –على وزن "مُفْعَلّ" – ودلالته، وجَعله وصفًا للوجه دون ذكر أي جارحة غيره في هذا المقام، إذ لعبت الكنايةُ والاستعارةُ دورًا يعجزُ الكلام عن وصفه، حينما وَصَف من خلالهما سواد الوجه الناتج من عدم تلبية حاجات القلب العقائدية، فالقلبُ في فاقةٍ دائمةٍ لا يمكن أن يسدها سوى قوةِ العقيدةِ في اللهِ سبحانه، ألا وربي إنه لإعجاز !!

كما تناول البحث مظهر بياض العين، المتمثِّل في قوله: ﴿ وَابْيَضَّتْ عيناه﴾ والذي يظهر من خلاله مرض العَمَى النَّفْسِّي، وقد أدرك نبيُّ الله يوسُف –عليه السلام– ذلك فأرسل لأبيه –عليه السلام– قميصه، إذ عبّر النظم القرآني عن ذلك بقوله: ﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾، ومن ثم قال: ﴿ بَصِيرًا﴾، ولم يقل:

(١) النظم الفني في القرآن ، عبد المتعال الصعيدي ص ١٧١، مكتبة الآداب ١٩٩٢م.

"مبصرًا"، وأيضًا لم يربط البياض بالبكاء وإنما ربطه بالحزن في قوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾، وهذا قِمَّةٌ في الإعجاز البلاغي والنفسي.

كما هُدينا إلى مَيْزَةٍ أخرى تتصل بإيحاءِ التراكيب أو ظلالها التي لا حصر لها من وراء تراكيبه وإيجازه ، وللقرآن في ذلك مجال خصب لتناوله فن التعريض والتلويح أو ما يسمى بدلالات التراكيب من خلال الدلالات الهامشية للألفاظ والعبارات، وظهر هذا من خلال حزن يعقوب -عليه السلام- حينما قال: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ ﴾ وأيضًا في قوله: ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى﴾.

كما ظهر التعريض من خلال بيان مظاهر حزن من بُشِّر بالأنثى فعلى الرغم من الإخبار بولادة الأنثى يُعتبر تبشيرًا، لكنَّ المشركين لا يعتبرونه تبشيرًا، لذا عبَّر بالفعل ﴿بُشِّرَ﴾ على سبيل السخرية؛ لأنهم لا يعتبرونها بُشَارة سَارّة، ومن ثم أفادت اللفظة التعريض بالتهكم؛ وذلك لأنهم يَعُدُّون البشارة مُصيبة، وذلك من قَلْبِهم للحقائق.

وتناول أيضًا مظهر فراغ الفؤاد المتمثل في قوله: ﴿فَارِغًا﴾ وربط القلب المتمثل في قوله: ﴿ رَّبَطْنَا﴾ ؛ لتعلق تلك الألفاظ في السياق بجوارحِ الإنسانِ، والذي من خلالهم أظهرنا فصاحةَ وبلاغةَ الدلالةِ التعبيريةِ من خلال دلالة اسم الفاعل لبيان علاقة هذا الفراغ بالفؤاد دون القلب، كما جاءت الاستعارة في الربط على القلب بدلالتها وتشخيص صورتها التي أذهلت العقول ، فضلاً على أن معاني تلك المظاهر تصل إلى الحسِّ والوُجْدان والذهن مقرونة بظلالِها الجميلةِ وإيحاءاتها التضمينية ؛ لإبلاغ الرسالة واستمالة القلوب وشدّ الأعناق.

ألا ما أروع الإيمان وما أجمل الرضا بقضاء الله وقدره ، الذي يحوّل المصائب والمحن إلى رضا وفرحة بما قدر الله تعالى ، وتلك مرتبة عالية شامخة لا يصل إليها إلا من اصطفاهم الله وجعلهم أئمة الهدى.

وأخيراً وليس آخرًا، لا أملك إلا أن أحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا على ما مَنَّ به عليَّ من فيضِ نورهِ والذي أرجو أن أكون قد وُفّقت في أسلوب عَرض هذا البحث، والتي حاولت جاهدةً أن يكون بسيطًا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ومن ثم أسأل الله تعالى أن ينفع به ويتقبّله، ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.(١)

(١) سورة يونس ، آية ١٠.

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .
٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد ابن محمد بن مصطفى ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، حسن طبل، دار الفكر العربي ١٩٩٨م.
٤- الأسلوب الكنائي في القرآن الكريم د/محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية ط/١، ١٣٩٨هـ .
٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، خرج أحاديثه محمد بن عبد العزيز الخالدي دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ط/١، ١٩٩٦م.
٦- الإعجاز العلمي في الإسلام "القرآن الكريم" محمد كامل عبد الصمد، الدار المصرية اللبنانية ، ط/٧، ٢٠٠٦م.
٧- الإعجاز والإيجاز، أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن ١٩٩٩م.
٨- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق : السيد صقر، ط دار المعارف .
٩- الإعجاز القصصي في القرآن ، سعيد عطية على مطاوع ، دار الآفاق العربية ، ط /١، ٢٠٠٦م.
١٠- إعراب القرآن الكريم عبد الله علوان، خالد الخولي، محمد سنبل، السيد فرج ، جاد العزب، صبري عبد العظيم، وآخرون، راجعه فتحي الدابولي وآخرين، دار الصحابة ٢٠٠٦م.
١١- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار ط/١، ١٩٩٩م.
١٢-الإيمان، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني تقي الدين، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ص ، المكتب الإسلام ط/٢، ١٩٩٦م.

١٣- البداية والنِّهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير، مكتبة المعارف بيروت ١٩٩٠م .
١٤- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ دار التراث ٢٠٠٥م.
١٥- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي ، تحقيق محمد على النجار، المكتبة العلمية.
١٦- بُغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ، عبد المتعال الصعيدي ، مطبعة الحلبي ١٩٩٩م.
١٧-البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية ، د/ محمد محمود القاسم، مكتبة الرشد ، ط/١، ٢٠٠٥م.
١٨- البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية ، د/ عبد الله محمد سليمان هنداوي ، مطبعة الأمانة ، ط/١، ١٩٩٥م.
١٩-التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور المجلد ، دار سحنون تونس ١٩٩٧م.
٢٠- تصريف الأسماء والأفعال فخر الدين قباوة، مكتبة المعارف، بيروت، ط/٢، ١٩٨٨م.
٢١-التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار المعارف ط/٨، ١٩٧٥ القاهرة .
٢٢- التصوير الفني في القرآن الكريم دراسة تحليلية، جبير صالح حمادي، مؤسسة المختار ط/١ ، ٢٠٠٧م.
٢٣- التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني المؤلف: سامي وديع عبد الفتاح شحادة القدومي ، دار الوضاح، الأردن – عمان .
٢٤- تفسير الجلالَيْن جلال الدين المحلى جلال الدين السيوطي، ط/١، دار القلم بيروت.

٢٥-تفسير الشعراوي- الخواطر-، محمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم .

٢٦-تفسير القرآن العظيم" تفسير ابن كثير" ، إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، مكتبة دار التراث ٢٠٠٠م.

٢٧- تفسير القرآن الكريم، سورة القصص، محمد بن صالح العثيمين، ط/١، ١٤٣٦هـــ، دار الدُّرة للنشر.

٢٨- التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي.

٢٩- تفسير الكشاف من حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي، الحلبي الطبعة الأخيرة ١٩٧٢م.

٣٠- تكوين الخطاب النفسي في النقد العربي القديم ، د/ حسن البنداري، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٢م.

٣١- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، الرُّماني - الخطَّابي - الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله - محمد زغلول سلام، دار المعارف ١٩٧٦م.

٣٢- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط/١، ٢٠٠١م ، دار هجر .

٣٣- الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، محمد ابن إسماعيل البخاري تحقيق: محب الدين الخطيب ،المكتبة السلفية القاهرة ط/١، ١٤٠٠هـــ.

٣٤- الجامع لأحكام القرآن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط/١ ، ٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة.

٣٥-الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه مع فوائد نحوية هامة، محمود صافي، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان - بيروت ، لبنان- .

٣٦- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي ، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي، دار صادر – بيروت ٢٠٠٠م.
٣٧- دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي أبو بكر، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مكتبة الخانجي مطبعة المدني، ١٩٨٨م.
٣٨- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد الظاهر الجرجاني ، صححه، الإمام محمد عبده، تعليق: محمد رشيد رضا، ط/ ٦، ١٩٦٠م، صبيح.
٣٩- دلالات الارتباط في أسلوب الشرط، دراسة في نصوص من صحيح البخاري، أبو بكر زروقي، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد خيضر، بسكرة الجزائر.
٤٠- دلالات الواو في النص القرآني د/ عيسى شحاته عيسى، دار الآفاق العربية ، ط/١، ٢٠١٢م.
٤١-ديوان الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي، جمع وتحقيق د/ صابر عبد الدايم ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.
٤٢- ديوان الخنساء تحقيق: د/ إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة ١٩٨٥م.
٤٣- السيْفُ المسلول على من سبَّ الرَّسُول-ﷺ-، علي بن عبد الكافي السُّبكي تقي الدين، تحقيق: إياد أحمد الغوج، ط/٢٠٠٠م، دار الفتح الأردن.
٤٤- سيكولوجية الدافعية والانفعالات، محمد محمود بني يونس، دار المسيرة ، ط/١، ٢٠٠٧م.
٤٥- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني أبو داود، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة- مؤسسة الريان- المكتبة المكية، ط/١٩٩٨م.
٤٦- شذا العرف في فن الصرف أحمد بن محمد الحملاوي ، دار الكيان.

٤٧- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة الحلبي.
٤٨- صحيح سنن الترمذي المؤلف، محمد ناصر الدِّين الألباني تحقيق: زهير الشاويش، مكتب التربية العربي لدول الخليج ط/١، ١٤٠٨هـ.
٤٩- الصورة الفنية في قصيدة الرؤيا تجربة الحداثة في مجلة شعر وجيل الستينات في سوريا، لمؤلفه عبدالله عسّاف.
٥٠- الطّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز يحي بن حمزة العلوي، تحقيق محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط/ ١، ١٩٩٥م.
٥١-علم النفس أُسُسه وتطبيقاته التربوية، د/ عبد العزيز القوصي، ط/ ٨، مكتبة النهضة العصرية ، بدون تاريخ.
٥٢- فتح القدير، محمد بن على بن محمد الشوْكاني، راجعه يوسف الغوش، دار المعرفة بيروت لبنان.
٥٣- فتوحات الوهَّاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل ، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل، دار الفكر.
٥٤- الفُرُوق اللغوية: لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، ط/١، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.
٥٥- فصول في فقه اللغة، رمضان عبد التواب ، مكتبة الخانجي ١٩٩٩م.
٥٦- الفصول المفيدة في الواو المزيدة، صلاح الدين أبو سعيد خليل ابن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي ، تحقيق: حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان ط/١، ١٩٩٠م.
٥٧- فصول من علم المعاني د/هلال عطاالله عثمان ،مكتبة الرشد ط/١، ٢٠٠٤م .

٥٨- في رحاب الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود ، كتاب اليوم ، العدد ٢٩٣، القاهرة ١٩٨٩م.
٥٩- القاموس المحيط الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، ط/٢، ١٩٨٧م.
٦٠- القرآن والصورة البيانية د/عبد القادر حسين، ط/١، ١٩٩١، دار المنار.
٦١- القرآن وعلم النفس، د. محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، ط/١، ١٩٨٢م.
٦٢- قواعد النحو العربي في ضَوْءِ نظرية النظم، سناء حميد البياتي ، دار وائل للنشر، ط/ ١، ٢٠٠٣م، الأردن.
٦٣- الكناية والتعريض لأبي منصور الثعالبي، تحقيق د/ عائشة حسين فريد ، دار قباء ط/١، ١٩٩٨م.
٦٤- لسان العرب، ابن منظور راجعه نخبة من الأساتذة المتخصصين، دار الحديث ٢٠٠٣م.
٦٥- مدارك السَّالكين، ابن قيمٍ الجَوْزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ٢٠٠٣م.
٦٦- معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق.
٦٧- معاني الحروف، أبي الحسن على بن عيسى الرُّماني،تحقيق: عرفات سليم العشا حسونة الدمشقي، المكتبة العصري، صيدا بيروت ٢٠١٤م.
٦٨- معاني القرآن أبو جعفر النحاس ، تحقيق محمد على الصابوني، ط/١، ١٩٨٨م إحياء التراث الإسلامي
٦٩- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د/ أحمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي ١٩٨٣م.

٧٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث ١٩٨٨م.
٧١- المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، ط/ ٢٠٠٤م .
٧٢- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤م.
٧٣- مفاتيح الغيب (تفسير الرازي)، فخر الدين الرازي، دار الفكر ط/١، ١٩٨١م.
٧٤- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان.
٧٥- من أسرار التعبير في القرآن الكريم " بناء التراكيب" د/ عبد الفتاح لاشين ، دار الفكر العربي ط/١، ٢٠١٤م.
٧٦- من أسرار التعبير في القرآن الكريم " الحروف" د/ عبد الفتاح لاشين، دار الفكر العربي ط/١، ٢٠١٤م.
٧٧- من بلاغة القرآن الكريم د/ إبراهيم طه أحمد الجعلى، مطبعة الحسين ط/١، ١٩٩١م.
٧٨- المنهج الصَّوْتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي الدكتور عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ط/١، ١٩٨٠م.
٧٩- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، تحقيق: أحمد مصطفى فضيلة، دار القلم ط/١١، ٢٠١٠م.
٨٠- النحو الكافي أيمن أمين عبد الغني، الدار التوفيقية للتراث، القاهرة.
٨١- نَظْم الدُّرَر في تناسب الآيات والسُّور، أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق عبد الرازق غالب المهدي، ط/١، ١٩٩٥م ، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان.
٨٢- النَّظْم الفني في القرآن، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب ١٩٩٢م.
٨٣- النقد الأدبي، وأصولُه ومناهجُه، سيد قطب، دار الفكر العربي ١٩٥٤م.

٨٤- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ومعه استدراكات عليه من كتاب (الذيل على النهاية في غريب الحديث والأثر) لعبدالسلام علّوش، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٨٥- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، محمد حسن باجودة ، دار الكتب الحديثة ، ط/١٩٨٣م.

فهرس الموضـــــوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
١	المقدمـــة	٢٦٨٥
٢	تمهيـــد : تأثير الأحـزان على جوارح الإنسـان	٢٦٨٩
٣	الإعجاز في القرآن الكريم .	٢٦٩٠
٤	مظاهر انفعال الحزن في القرآن الكريم.	٢٦٩٢
٥	استلزام انفعال القلب في إعمال الجوارح.	٢٦٩٣
٦	الفصل الأول: مظاهـر انفعـال الحـزن عند مَـنْ بُشِّـر بالأُنثى.	٢٦٩٦
٧	المبحث الأول : الأسباب البلاغية الإعجازية في المتشابهات القرآنيـة " في آيتي النحل والزخرف"	٢٦٩٧
٨	الاختلاف في الوصف .	٢٦٩٨
٩	الفصل والوصل وبلاغته في المتشابه القرآني.	٢٧٠٤
١٠	بلاغة الالتفات في آية الزخرف.	٢٧٠٧
١١	السلوك الانفعالي بين الإيجاز والإطناب.	٢٧٠٩
١٢	الكناية وأثرها في آية الزخرف .	٢٧١٠
١٣	المبحث الثاني : نظـرات في الكلمـــة القرآنيـة وأحوالهـا" في آيتي النحل والزخرف"	٢٧١٢
١٤	مادة الكلمة وجمال وقعها على السمع .	٢٧١٢
١٥	دلالة أسلوب الشرط وبلاغته في السياق.	٢٧١٤
١٦	جمال الكلمة باتساقها مع المعنى.	٢٧١٩
١٧	المبحث الثالث : بلاغة وصف انفعال وجه من بُشِّر بالأُنثى.	٢٧٢٣
١٨	الفصل الثاني: مظاهر حـزن الآبـاء على الأبناء " بين الإعجاز البلاغي والنفسي"	٢٧٣٨
١٩	المبحث الأول : مظاهر حزن يعقوب -عليه السلام-.	٢٧٣٩

٢٠	المحور الأول: جمالية الكلمة القرآنية ودلالتها في آية يوسف.	٢٧٤٠
٢١	المحور الثاني: نظرات في أحوال الجملة القرآنية في آية يوسف-عليه السلام-.	٢٧٤٩
٢٢	مراحل حزن يعقوب -عليه السلام-.	٢٧٥٢
٢٣	الإعجاز النفسي في بياض العين " العمى النفسي".	٢٧٦٢
٢٤	ربط الشكاية بالحزن والبث إلى الله تعالى.	٢٧٦٩
٢٥	التعريض ودلالته.	٢٧٧٠
٢٦	المبحث الثاني: مظاهر حزن أم موسى – رضى الله عنها-	٢٧٧٦
٢٧	المحور الأول: استلزام انفعال الفؤاد والقلب في حزن أم موسى.	٢٧٧٧
٢٨	المحور الثاني: الجملة القرآنية وجمال صياغتها في وصف حُزْنِ الأبوَيْن"	٢٧٨٧
٢٩	وضع الظاهر موضع المضمر.	٢٧٨٨
٣٠	الأساليب الخبرية والإنشائية.	٢٧٩١
٣١	دلالة اسم الفاعل.	٢٧٩٤
٣٢	التصوير البياني بين بياض العين وفراغ الفؤاد وربط القلب.	٢٧٩٥
٣٣	الإعجاز النفسي في قوله :﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾.	٢٨٠٢
٣٤	الطباق الخفي بين "فارغاً" و"ربطنا".	٢٨٠٤
٣٥	أسلوب التوكيد.	٢٨٠٤
٣٦	دلالة "كادت" في وصف حزن أمِّ موسى –رضي الله عنها-.	٢٨٠٥
٣٧	الخاتمة	٢٨١١
٣٨	ثبت المصادر والمراجع	٢٨١٦
٣٩	فهرس الموضوعات	٢٨٢٤